الشُّوذيَّة حلقة مفقودة في التصوُّف الأندلسيِّ:

ابن المرأة الأندلسيُّ .. حياته وتصوُّفه

أ. د. محمَّد حلمي عبد الوهَّاب (مصر)

لا تكاد تُسْعِفُنا المصادر التَّاريخية بمعلومات مُجْملة ، أو حتَّى مفصَّلة ، عن مؤسِّس **الطَّريقة الشُّوذية** في التّصوف الأندلسيِّ وبعض تلامذته ، الذين أسهموا في انتشار طريقته التي تأثَّر بها أتباع التصوف الفلسفيِّ بصفة خاصة ؛ بدءًا بالشيخ الأكبر محيي الدِّين بن العربي (560 - 638هـ/ 1165 — 1240م) ومرورًا بعروس الفقراء وأمير المتجرِّدين أبي الحسن الشُّشْتري (610 - 668هـ/ 1213 — 1268م)، وليس انتهاء بفيلسوف **الوحْدة المُطْلَقة** عبد الحق بن سبعين (614 - 669هـ/ 1217 — 1269م).

والحال أنَّ ما كُتب عن هذه المدرسة يُعدُّ قليلًا جدًّا ، بل وفي حكم النَّادر أيضًا ، مُقارنة بما تكشَّف من بحوث ودراسات عن بدايات التصوُّف الأندلسيِّ ممثَّلا في مدرسة ابن مسرَّة الجبليِّ (269 - 319هـ/ 833 — 931م) ، أو نهاياته ممثَّلا في ابن العربي الحاتميِّ ؛ على الرُّغم من أنَّ المدرسة الشُّوذيَّة تُمثِّل حلقة وصْلٍ وسطى ما بين ابن مسرَّة الجبليِّ من جهة ، وابن سبعين من جهة أخرى. ومن المعلوم أن ابن مسرَّة لفت انتباهَ أسين بلاثيوس (1288 — 1363هـ/1871 — 1944م) منذ زمن طويل ، فأفرد له كتابا كاملًا بعنوان: **ابن مسرَّة ومدرسته** ، نشره في مدريد سنة 1914م.

أمَّا أبي عبد اللَّه الشُّوذِيّ الإشبيليِّ - المعروف بالحَلَوي - فلا نجد له ترجمةً وافيةً ؛ سوى ما ورد في روايتيْن عن طريق تلميذه أبي إسحاق إبراهيم بن يوسُف بن محمَّد بن دهَّاق الأوْسيِّ المالَقِيِّ ، المعروف بابن المرأة الأندلسيِّ (- 611هـ/ - 1214م).

الرِّواية الأولى ينقلها لنا ابن خلدون (أبو زكريا يحيى بن أبي بكر المتوفَّى سنة 780هـ/ 1378م)، في كتابه: **بُغْية الرُّواد في ذكر الملوك بني عبد الواد** ، حيث يُورد قصَّة لقاء ابن المرأة بشيخه أبي عبد اللَّه الشُّوذيِّ في مدينة تَلِمْسان.[1]

---

[1] ابن خلدون (أبو زكريا يحيى بن أبي بكر محمَّد بن محمَّد بن الحسن المتوفَّى سنة 780هـ)، **تاريخ بني زيَّان المعروف ببُغية الروَّاد في ذكر الملُوك بني عبد الواد وما حازه أمير المُسلمين مولانا أبو حَمُّو من الشَّرف الشَّاهق الأطواد** ، [تحقيق ألفرد بل]، (الجزائر: مطبعة بيير بونطانا الشَّرقية ، 1321هـ - 1903م)، المجلد الأول ، ترجمة رقم 93، ص 65-68. وانظر كذلك: ابن مريم (أبو عبد اللَّه محمَّد بن

وتُطلعنا هذه الرِّواية ، الطَّويلة نسبيًّا ، على جملة الظروف والمُلابسات التي أحاطت بتتلْمُذ ابن المرأة على يد شيخه وأستاذه ومُرْشده الرُّوحيِّ ، وطبيعة هذا الوليِّ الكبير الذي أثَّر تأثيرًا عظيمًا في شخص تلميذه ، وفي **المدرسة الشُّوذيَّة** قاطبةً. خاصَّة وأنَّ المصادر التَّاريخية لا تذكر شيخًا آخر لابن المرأة في التَّصوُّف ، تلقَّى على يديه تعاليمه الرُّوحيَّة ، وآثر البقاء بصُحْبته حتَّى وفاته ، وتشرَّب كلامه في كلٍّ من الأدب ، والتَّفسير ، وعلوم التَّصوُّف.

أمَّا **الرِّواية الثانية** المتعلِّقة بأبي عبد الله الشُّوذيِّ ، فنجدها في كتاب: **سِيَر أعلام النُّبلاء** لشمس الدِّين الذَّهبي (673 – 748هـ/ 1247 – 1348م) الذي يقول - فيما ينقل عن ابن المرأة -: "ثمَّ شرع يُخْبرني بأحوالي كأنَّه كان معي ، وكنتُ إذا صلَّيتُ يُخيَّل لي نورٌ عند قدميَّ ، فقال لي: أنت مُعْجبٌ تظنُّ نفْسَك شيئًا! لا ، حتَّى تقرأ العلوم. قلتُ: إنِّي أحفظُ القرآن بالرِّوايات. قال: لا ، حتَّى تعْلَم تأويلَهُ بالحقيقة. فقلت: علِّمني. ثمَّ جعل يُفسِّر لي القرآن تفسيرًا عجيبًا مُدهِشًا ، ويأتي بمعانيَ ؛ فبَهَرَني".[1]

وإذا ما تجاوزنا مؤسِّس **الطَّريقة أو المدرسة الشَّوذيَّة** إلى خلفائه من بعده ؛ ألفينا أنفسنا تجاه ثلاثة أعلام طغت شُهرة آخرهم على أوَّلهم ؛ وهم: ابن المرأة ، وابن أَحْلى (580 - 645هـ/ 1184 – 1247م) ، وعبد الحق بن سبعين. أمَّا ابن المرأة ؛ فمعلوماتنا بشأنه قليلة جدًّا ، إذ لا تتعدَّى ترجمته في كتاب **الوافي بالوفيات** للصَّفدي (696 - 764هـ/ 1297 - 1363م) ، - أحد أوسع كتُب التَّراجم قاطبة - حدود خمسة أسطر! على أنَّنا نجد ترجمة موسَّعة له - نسبيًّا - عند ذي الوزارتين ، لسان الدِّين بن الخطيب (713 - 776هـ/ 1313 - 1374م)، في كتابه: **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، الذي يتضمَّن تفاصيل أوسع تتعلَّق بطبيعة شخصيته ، ودائرة علاقاته ، وبعض سلوكياته ، كما أنَّه أتى على ذكر تآليفه في الكلام ، والفقه ، والتَّصوُّف.

**

تتغيَّا هذه الدِّراسة الإبانةَ عن الطَّريقة ، أو **المدرسة الشُّوذيَّة** ، بوصفها تمثِّل حلقة مفقودة في التصوُّف الأندلسيِّ ؛ وذلك من خلال تسليط الضَّوء على حياة وآثار أبي إسحاق ابن دهَّاق ، المعروف بـ ابن المرأة الأندلسيِّ ، والذي يُعدُّ - هو الآخر - بمثابة حلقة وصْل في تاريخ **المدرسة الشُّوذيَّة** ما بين مؤسِّسها أبي عبد اللَّه الشُّوذيِّ من جهة ، وأبرز روَّادها عبد الحق بن سبعين من جهة أخرى. فحتَّى

محمَّد بن أحمد المليتي المديوني التِّلِمْساني المتوفَّى سنة 1014هـ)، **البُستان في ذكر الأولياء والعُلماء بتِلِمْسان** ، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله حضرة الشَّيخ مُحَمَّد بن أبي شنب ، (الجزائر: المطبعة الثعالبية ، 1326هـ - 1908م) ، ص 68-70.

([1]) الذَّهبي (شمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان المتوفَّى سنة 748هـ)، **سِيَر أعلام النُّبلاء** ، أشرف على تحقيق الكتاب وخرَّج أحاديثه شعيب الأرنؤوط ، تحقيق بشّار عوّاد معروف وآخرين ، (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة ، 1422هـ - 2001م) ، الجزء الثالث والعشرون ، ص 315-316.

وقت قريب جدًّا كان المشكل الرَّئيس في التَّعرُّف على هذه المدرسة الصُّوفيَّة الفلسفيَّة يتجاوز حدود جهْلنا الأوليّ بمؤسِّسها وبأبرز تلامذته ، إلى جهلنا الكامل تقريبًا بالمُدوَّنة الصُّوفية التي أنتجتها هذه المدرسة المهمَّة ؛ نظرا لكونها في عداد المفقود!

لكنّني وُفّقتُ - بعون من الله تعالى - في الحُصول على نُسخة من مخطوط: **كتاب القوانين** لابن المرأة ، الذي وضعه في شرح كتاب: **مَحاسن المجالس** ، لابن العَرِيف الصِّنْهاجِيِّ (481 - 536هـ/ 1088 – 1141م) [1] ، وأوشكتُ على الانتهاء من تحقيقه.

ولا شك في أنَّ اهتمامنا الأساسي بشخصية ابن المرأة الأندلسيِّ ، وتحقيق كتابه الفريد الذي نُوشك على الانتهاء منه ، إنَّما يتعلَّق في المقام الأوَّل والأخير بالإسهام في - والكشف عن - حدود المصادر المعرفيَّة للتصوُّف الأندلسيِّ ، والتي شكَّلت رافدًا مُهمًّا في تشكيل فلسفة وتصوُّف رُوَّاد التَّصوف الفلسفيِّ بصفة خَّاصة ؛ وبخاصَّة أولئك القائلين بـ **الوَحْدة المُطلقة** ، أو **وَحْدة الوجود** ، كمُحيى الدِّين بن العربي ، وأبي الحسن الشُّشْتري ، وعبد الحق بن سبعين.

([1]) حول ترجمة ابن العريف انظر بصورة خاصَّة:

- ابن بَشْكُوَال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك المتوفَّى سنة 578هـ)، **كتاب الصِّلة** ، (القاهرة: الهيئة المصرية العامَّة للكتاب ، 2008م) ، القسم الأول ، ترجمة رقم 167 ، ص 81.
- ابن الأبَّار (أبو علي حسين بن محمَّد المتوفَّى سنة 594هـ) ، **المُعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصُّدَفِيّ** ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، المكتبة الأندلسية: المجلد 16 ، الطبعة الأولى ، (القاهرة: دار الكتاب المصري – بيروت: دار الكتاب اللبناني ، 1410هـ - 1989م) ، ترجمة رقم 14 ، ص 27-30.
- الضَّبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عُميرة المتوفَّى سنة 599هـ) ، **بُغية المُلتمِس في تاريخ رجال أهل الأندلس** ، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2008م) ، ترجمة رقم 360 ، ص 166.
- ابن الزيَّات (أبو يعقوب يوسُف بن يحيى التَّادِليُّ المتوفَّى سنة 617هـ)، **التَّشوُّف إلى رجال التَّصوُّف وأخبار أبي العبَّاس السَّبتيّ** ، تحقيق أحمد التَّوفيق ، سلسلة بحوث ودراسات: رقم 22 ، الطبعة الثانية (الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، 1997م) ، ص 118- 123.
- ابن خِلِّكان (أبو العباس شمس الدِّين أحمد بن مُحَمَّد بن أبي بكر البرمكيّ المتوفَّى سنة681هـ) ، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان** ، تحقيق إحسان عباس ، (بيروت: دار الثقافة ، 1968- 1977م) ، الجزء الأول ، ترجمة رقم 68 ، ص 168.
- ابن فرحون المالكي (برهان الدِّين إبراهيم بن علي بن محمَّد اليَعْمُرِيُّ المتوفَّى سنة 799هـ)، **الدِّيباج المُذْهَبُ في معرفة أعيان علماء المَذْهَب** ، تحقيق وتعليق محمَّد الأحمدي أبو النور ، (القاهرة: دار التُّراث للطبع والنشر ، 1972م)، الجزء الأول ، ص 58.
- السَّمْلالي (العبَّاس بن إبراهيم المتوفَّى سنة 1378هـ) ، **الإعلام بمن حلَّ مرَّاكُش وأغْمَات من الأعلام** ، راجعه عبد الوهاب ابن منصور ، الطبعة الثانية ، (الرباط: المطبعة الملكية ، 1413هـ- 1993م) ، الجزء الثاني ، ترجمة رقم 125 ، ص 5.

وممَّا يزيد من ضرورة الاهتمام بتلك المدرسة الصُّوفية ؛ ما أثارته من أفكارٍ وآراءٍ فلسفيَّةٍ دفعت العديد من الفُقهاء والمُتكلِّمين إلى مُعارضتها والتَّصدِّي لها ؛ وذلك:

- **إمَّا بتأليف الكتب في الردِّ عليها** ؛ كما هي الحال بالنِّسبة إلى كلٍّ من:
  (1) قُطب الدِّين القَسْطلَّاني (614 - 686هـ/ 1218 — 1287م)، الذي ألَّف كتاب: **الارتباط** في الردِّ على كلٍّ من: ابن سبعين ، وابن الفارض (576 — 632هـ/ 1181 — 1235م) ، والشُّشْتري ، والعفيف التِّلِمْساني (610 — 690هـ/ 1213 — 1291م).
  (2) وابن الزُّبير (ت 708هـ/ 1308م)، الذي ألَّف كتابًا في الردِّ على أبي عبد الله الشُّوذيِّ ، سمَّاه: **رَدْعُ الجاهل عن اعْتِساف المُجَاهِل**.
  (3) وابن رشيدٍ السِّجِلْمَاسِيِّ (أبو عبد الله محمَّد بن عمر المُتوفَّى سنة 721هـ/ 1321م) ، الذي ألَّف كتابًا هو الآخر في الردِّ على الشُّوذيَّة أيضًا ، سمَّاه: **إماطة الأذيَّة النَّاشئة من سُبَاطة الشُّوذيَّة**.
  (4) وأخيرًا - وليس آخرًا - تقيُّ الدِّين بن تيمية (661 - 728هـ/ 1263 — 1328م) ، الذي خصَّ كلًّا من ابن العربي وابن سبعين بالعديد من الرسائل: كـ**السَّبعينية: أو الردِّ على ابن سبعين وأهل الوحْدة** ، **وحقيقة مذهب الاتحادية** ، وغيرهما.
- **أو بإعلان تكفير المُنتمين إليها** ؛ كما هي الحال بالنِّسبة إلى أبي حيَّان الأندلسيِّ (654 - 745هـ/ 1256 — 1344م) ، في السِّفر الخامس من كتابه: **المُقتبَس من أنباء أهل الأندلس** ، وكذا في تفسيره المُسمَّى: **البحر المُحيط**. وكذلك البِقَاعيُّ (805 - 885هـ/ 1406 — 1480م) ، الذي ألَّف بمفرده كتبًا أربعة في تكفير ابن العربي ، وابن الفارض!
- **أو ببيان تهافُت مذهبها ووصْفِه بأنَّه "غاية في السُّقوط"** ؛ كما هي الحال بالنِّسبة إلى ابن خلدون (732 - 808هـ/ 1332 — 1406م) ، الذي عرض لآراء ابن المرأة الأندلسيِّ في **مقدِّمتِه**.

أولا: ابن المرأة الأندلسيُّ .. حياته وطريقته الصوفية

كما سبق وذكرنا آنفًا ؛ فإنَّه لا تُسعفنا المصادر التَّاريخية بمعلومات مُجملة ، عن صاحب **كتاب القوانين** ، ابن المرأة الأندلسي[1] ؛ في شرح كتاب **محاسن المجالس** لابن العرِّيف الصِّنْهَاجيِّ

([1]) لا نعرف على وجه الدِّقة سببًا لتسميته بابن المرأة ، لكننا نعرف واحدًا على الأقل يشترك معه في الكنية نفسها وكان معاصرًا له أيضًا ، ترجم له ابن عبد الملك في كتابه **الذيل والتكملة** ؛ وهو: "عبد الملك بن أحمد بن مُحَمَّد الأزدي ، أبو مروان ابن المرأة ، أخذ عن أبي بكر بن النفيس وغيره ، وله رحلة إلى المشرق حجَّ فيها ، وقفل إلى بلده.كان جليلا فاضلا مُعلِّما لكتاب الله تعالي ، كثير التِّلاوة. توفِّي سنة خمس وتسعين وخمس مئة ، وقد علتْ به السِّن". انظر: ابن عبد الملك (أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد الأنصاري الأوسي المراكشي

(ت 536هـ). إذ تكاد تتطابق المعلومات الواردة في كتاب **الوافي بالوفيات** ، وتتكرَّر ، ضمن تضاعيف كتب التراجم المتأخرة عنه ؛ كـ**معجم المؤلِّفين** على سبيل المثال ، لعمر رضا كحَّالة.[1]

فإذا رجعنا إلى المصادر التَّاريخية الأقدم - الأندلسية منها بصفة خاصة - وجدنا ترجمة موَّسعة له نسبيًّا عند ذي الوزارتين ، لسان الدِّين بن الخطيب في كتابه **الإحاطة في أخبار غَرْنَاطة** ، تتضمَّن تفاصيل أشمل تدور حول أمرين رئيسين:

<u>أولهما:</u> معلومات تتعلَّق بطبيعة شخصيته ودائرة علاقاته ، وبعض سلوكياته.

<u>ثانيهما:</u> ذكر تآليفه في الكلام والفقه والتَّصوف ، مع الإشادة بها.

أمَّا المصادر التَّاريخية اللاحقة عن "**الإحاطة**" ؛ فتكاد تكرِّر ما أورده ابن الخطيب من دون نقص أو زيادة!

اسمه وكنيته:

لا نلحظ تفاوتًا يُذْكَر بشأن اسم ابن المرأة وكُنيته ؛ مع استثناءات قليلة جدًّا تتعلَّق بنسبته المكانية ، وما إذا كان مَرَدُّها إلى: مَالَقَة بحُكم الولادة ، أم إلى مُرْسِيَة بحكم الاشتهار والإقامة ؟! وفيما عدا ذلك تُورد المصادر التَّاريخية بيانات اسمه بشكل مُتشابه ، مع تقديم وتأخير في النِّسبة أحيانًا.

- فصاحب **الإحاطة** يُورد اسمه وكُنيته على النَّحو التَّالي:

"إبراهيم بن يوسُف بن محمَّد بن دهَّاق الأوْسِيُّ المالَقيُّ ، يُكنى أبا إسحاق ، ويُعْرفُ بابن المرأة".[2]

- والصَّفديُّ يُوردها هكذا:

"إبراهيم بن يوسُف بن محمَّد بن دهاق ؛ أبو إسحاق الأوْسِيّ المَالَقي ، المعروف بابن المرأة".[3]

- وعمر رضا كحَّالة يُوردها هكذا:

المتوفَّى سنة 703هـ) ، **الذيل والتكملة لكتابيْ الموصول والصِّلة** ، تحقيق إحسان عباس ، (بيروت: دار الثقافة ، 1965م) ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ترجمة رقم 8 ، ص 11 (وهامش رقم 6).

([1]) عمر رضا كحَّالة ، **معجم المؤلِّفين: تراجم مُصنِّفي الكتب العربية** ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي ، 1957م) ، الجزء الأول ، ص 130.

([2]) ابن الخطيب (لسان الدِّين محمَّد بن عبد الله بن سعيد السلماني المتوفَّى سنة 776هـ) ، **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، حقّق نصّه ووضع مقدمته وحواشيه محمَّد عبد الله عنان ، الطبعة الأولى (القاهرة: مكتبة الخانجي ، 1395هـ- 1975م) ، المجلد الأول ، ص325.

([3]) **كتاب الوافي بالوفيات** ، 171/6.

"إبراهيم بن يوسُف بن محمَّد بن دهاق، الأوسيُّ، المالكيُّ، ويُعْرف بابن المرأة (أبو إسحاق)".[1]

ومع أنَّ كلًّا من الصَّفدي وكحَّالة لم يضبطا الأحرف الخاصة باسم "دهاق"؛ فإنَّنا نلحظ اختلافا فيما يتعلَّق بضبط حرفي الدَّال والهاء؛ حيث تُرسم اللفظة هكذا "دَهَّاق" عند ابن الخطيب في **الإحاطة**، وابن حجر العسقلاني في **لسان الميزان**، وعند أغلب من ترجموا لابن المرأة، فيما ينفرد ابن خلدون بتخفيفها مع كسر الدَّال؛ حيث يقول في **مقدِّمته**: "والذي يظهر من كلام ابن دِهَاقٍ في تقرير هذا المذهب...".[2]

وبالعودة إلى ترجمة صاحب **الإحاطة** لابن المرأة؛ فإننا نُصادف معلومات مُهمَّة فيما يتعلَّق بطبيعة عمله، وتنقلاته، واهتماماته العلمية، وعلاقاته بعلماء عصره:

- ففيما يتعلَّق بعمله؛ يذكر ابن الخطيب أنَّه "كان بمالَقَة يتَّجرُ بسوق الغزَل".
- وفيما يتعلَّق بتنقلاته؛ يذكر أنّه "سكن مالَقَة دهرًا طويلًا، ثمَّ انتقل إلى مُرْسِيَة".
- وفيما يتعلَّق باهتماماته العلمية؛ يذكر أنّه "كان مُتقدِّمًا في علم الكلام، حافظًا، ذاكرًا للحديث والتَّفسير، والفقه والتَّاريخ، وغير ذلك. وكان الكلام أغلَبَ عليه، فصيحَ اللسان والقلم، ذاكرًا لكلام التصوُّف، يُطرِّز مجالسه بأخبارهم".
- وفيما يتعلَّق بصلته بعلماء عصره، وبعض سلوكياته؛ يذكر أنّه "انتقل إلى مُرْسِيَة؛ باستدعاء المُحدِّث أبي الفضل المُرْسي[3]، والقاضي أبي بكر بن مِحْرز[4] (...)، وشاهد منه بعضهم ما

([1]) **معجم المؤلِّفين: تراجم مُصنِّفي الكتب العربية**، الجزء الأول، ص 130.

([2]) ابن خلدون (وليُّ الدِّين عبد الرَّحمن بن محمَّد المتوفَّى سنة 808هـ)، **كتاب العِبر وديوان المُبتدأ والخبر في أيَّام العرب والعجم والبربر ومن عاصَرهم من ذوي السُّلطان الأكبر**، قرأه وعارضه بأصول المؤلِّف وأعدَّ معاجِمه وفهارسه إبراهيم شبُّوح، الطبعة الأولى (تونس: القيروان للنشر، 2007م)، الجزء الثاني، ص 271.

([3]) هو الإمام العلّامة البارع القدوة المفسِّر المحدث النحوي: شرف الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن أبي الفضل السُّلَميّ المرسيّ الأندلسيّ. ولد بمُرْسِيَة وسمع "الموطأ" من المحدث أبي محمَّد بن عبيد الله الحجري في سنة تسعين وخمس مئة. حجَّ ودخل إلى العراق وإلى خراسان والشام ومصر، وقدم بغداد سنة أربع وثلاثين، ونزل بالمدرسة النظامية، وحدَّث بـ"**السنن الكبير**" و بـ"**الغريب**" للخطَّابي. وهو من الأئمَّة الفضلاء في جميع فنون العلم، زاهد مُتورّع كثير العبادة، فقير مجرّد، متعفِّف قليل المخالطة، حافظ لأوقاته، طيب الأخلاق. ارتحل إلى مالَقَة سنة تسعين وخمس مئة، فقرأ على أبي إسحاق بن إبراهيم بن يوسُف بن دهاق، ويُعرف بابن المرأة. قال: "ولم يكن بالأندلس في فنّه مثله [ابن دهاق]، يقوم بعلم التفسير وعلوم الصوفية، كان لو قال هذه الآية تحتمل ألف وجه قام بها". قال [ابن دهاق]: "وما سمعت شيئًا إلّا حفظته، قرأ على أبي عبد الله الشُّوذيّ التِّلمساني الصَّالح". انظر: **سير أعلام النبلاء**، الجزء الثالث والعشرون، ص 312-315.

([4]) هو محمَّد بن أحمد بن محرز، أبو بكر البَطَلَيَوْسِيّ، نزيل إشبيلية، مُقرئ علامة. كان فقيهًا مشاوَرًا حافظًا أديبًا حافلًا كاتبًا. تُوفِّي في آخر سنة تسع وستين وخمس مئة. انظر: ابن الجزري (شمس الدِّين أبي الخير محمَّد بن محمَّد الدمشقيّ المتوفَّى سنة 833هـ)، **غاية**

يمنعه الشَّرع من المرتكبات الشَّنيعة ، فنافره وباعده بعد الاختلاف إليه ؛ منهم شيخُنا القاضي العدل المسمَّى الفاضل: أبو بكر بن المُرابط ".[1]

أمَّا الجانب الآخر الذي يتعلَّق بتواليفه ؛ فقد أتى على ذكرها صاحب **الإحاطة** ، وتكرَّرت من بعده لدى المتأخرين عنه ، على نحو ما سنوضِّحها لاحقا.

أبو عبد الله الشُّوذي وطريقته الصوفية

كما أنَّ ثمّة شحًّا في المعلومات المتعلِّقة بحياة ابن المرأة الأندلسي ؛ حيث لا نعرف على وجه التَّقريب سنةَ ولادته ولا موضعها تحديدًا ، وكذلك لا نعلم شيئًا فيما يتعلَّق بحياته الاجتماعية وأولاده ، فضلًا عن أنَّنا لا نجد تعليلًا لتسميته بابن المرأة ...إلخ ،كذلك تنقصنا المعلومات التَّاريخية حول عدد من شيوخه وتلامذته. ومن خلال رجوعنا إلى المصادر التَّاريخية أمكننا الوقوف على بعض شيوخه ، وفي مُقدِّمتهم:

(أ) الشَّيخ الوليُّ: أبو عبد الله الشُّوذيُّ الإشبيليُّ المعروف بالحَلَوي: ويكاد يكون الوحيد من بين شيوخه الذين نعرف معلومات مُفصَّلة عن مكان وزمن تتلمُذ ابن المرأة على يديه ؛ بل إنَّ ترجمات هذا الشَّيخ تعتمد بشكل كبير على ذكر ابن المرأة قصَّةَ لقاءهما ؛ حيث ينقل صاحب كتاب **بُغية الرُّواد في ذكر ملوك بني عبد الوَاد** ، ما نصُّه:

"حدَّث الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يوسُف بن محمَّد بن دِهَاق الأوْسيُّ المعروف بابن المرأة ، قال: أتيتُ من مُرْسِيَة زائرًا عمَّة لي بتلمسان ، فما سرَّني شيء كوجودها حيَّة ، وتطوَّفْتُ يوما بتلمسان فرأيتُ هذا الشَّيخ يبيع من طبق عودٍ في يده حلْوَاء للصِّبيان الصِّغار ، فتفرَّسْتُ فيه مخائل القوم [= الصُّوفية] فاتبعتُه ، فإذا من يمرُّ به من الصِّبيان ينقرون له فيدور **ويشْطح** ، وربَّما أنشد مُقَطَّعاتٍ مُتَّفِقات الألفاظ في **معنى المحبَّة** ، فلم أشك أنَّه من الصَّالحين. ثمَّ أخذ في ثمن شيءٍ من حلواته كِسْرَةَ خُبز سميد فتصدَّق بها على يتيمٍ ذي أطْمارٍ بعد علمِه بحاجته ، فقلتُ في نفسي: هذا وليٌّ ورع[2] مقامُه يبيعُ الحلْواء! وكان ذلك برمضان ، فلمَّا جاء الفِطْرُ ابتعتُ سميدًا وعسلًا وقلتُ لعمَّتي: اصنعي لي مَشْهدة يفطرها عندي رجلٌ من الصَّالحين. ففعلَتْ ، والتمستُه في النَّاس بعد صلاة العيد فلم أجده ، فحوقلتُ وقلتُ في نفسي: اللهمَّ بحقِّه فاجمع بيني وبينَه في هذه السَّاعة ؛ فإذا هو عن يميني ، فانضمَّ إليَّ وقال:

النهاية في طبقات القرَّاء ، عُني بنشره ج. برجستراس ، (بيروت: دار الكتب العلمية ، 1427هـ- 2006م) ، ترجمة رقم 2778 ، الجزء الثاني ، ص 73.

([1]) **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، المجلد الأول ، ص325-326.

([2]) في الأصل: "مورعا".

صنعَتْ عمَّتُك المَشْهدة؟ فقلت: نعم. فقال: قم بنا إلى ناحية نأكل هذه المشهدة الحاضرة وحينئذ نمشي إلى دار عمَّتك. فقمتُ معه إلى خارج المُصلَّى، فأخرَج من تحته صحيفة مغطَّاة بمنديل نظيف وكشَطَهُ فإذا هو فيه مشهدة لم يُرَ مثلُها، فأكلنا وتوجَّهنا إلى دار عمَّتي فأحضرتْ مشهدتها فلم تُشْبِه الأولى بشيءٍ، فأكلنا منها شيئًا. فلما أفرغنا قال لي: بماذا تحْترف؟ قلت: بالقراءة. قال: أتريدُ أن تقرأ؟ قلت: نعم. قال: ائتني غدًا، إن شاء الله، بالمسجد الذي بخندق عين الكسور[1] وتقرأ ما تريد. فخرجتُ إليه من الغد، فوجدته جالسًا بالمسجد لوعدي، فسلَّمتُ عليه، وجلستُ بين يديه، فقال: ما الذي تريد قراءته؟ فقلت: ما ألهمك الله. قال: اقرأ كتاب الله أولًا؛ فهو أحقُّ أن يُفْتَتح به. فتعوذتُ بالله من الشَّيطان الرَّجيم وقرأتُ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، فتكلَّم في فضلها عشرة أيَّام. ثمَّ قرأتُ حديث رسول الله ﷺ، ثمَّ شيئًا من الأدب. قال المُخْبِر [ابن المرأة]: فكلُّ ما تسمعونهُ من أدبٍ؛ فمنهُ استفدتُه وعنه أخذتُه في مُدَّة حولين كاملين ،لم ينتقل فيها عمَّا عَهِدتُه. وممَّا يُنسب من نَظْمِه: [الوافر]

إذا نطقَ الوجودُ أصاخَ قومٌ — بآذانٍ إلى نُطق الوجودِ

وذاك النُّطقُ ليس به انعِجَامٌ — ولكن دقَّ عن فهْم البليدِ

فكنْ فَطِنًا تُنادَى من قريبٍ — ولا تَكُ ممَّن يُنادَى من بعيد

وقيل: إنَّه [الشُّوذيّ] وَلِي القضاء بإشبيلية، آخر دولة بني عبد المؤمن، ثم فرَّ بنفسه منها وآوى إلى تلمسان في زي المجانين. وأخبرني الشَّيخ أبو الحسن المَيورقيُّ[2]، قال:

كان ابن دهَّاق، المُتقدِّم الذكر، يدرس كتاب الطهارة من المدونة بالجامع، فقال له يومًا الوليُّ أبو عبد الله الحلوي: إلى كم ذا غُسْلٍ وحيضٍ ونِفَاس؟! فلمَّا فرغ أقبل عليه، وقال: سيدي! قلتَ لي ما قلتَ، فبم تراني أصنع؟ فقال: اشتغل بما ينفعك. فقال: أقرأُ عليك يا سيدي. قال: لا، ولكن امض إلى فُلان بتونس، فخرج ابن دهَّاق من حينه إلى تونس ولقي المذكور وطلب منه القراءة عليه، فسأله عن بلده، فقال: تلمسان. فقال له: عليك بشيخي فيها أبي عبد الله الشوذيِّ. فعاد فلمَّا وصل لقي الشَّيخ خارج باب الفرمدين، فقال له: ردَّك إليَّ! قال: نعم. قال: افعل إذن كفعلي، وركب قصبة وانصرف، فكانا

([1]) أحاط المهندسون الزيانيون مدينة تلمسان بخندقين عميقين من الجهة الجنوبية والجهة الشمالية الغربية. فقد بنوا الأول بموازاة وادي متشكانة (خندق وادي متشكانة)، الذي يلتف حول المدينة من الناحية الجنوبية والشرقية. وأما الخندق الثاني بالشمال الغربي للمدينة فيعرف بخندق "عين كسور"، خارج باب القرمادين. انظر: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، ص 69.

([2]) مَيُورْقَةُ: بالفتح ثم الضمّ وسكون الواو والرَّاء يلتقي فيه ساكنان، وقاف. جزيرة في شرقي الأندلس، كانت قاعدة ملك مجاهد العامري، ويُنسب إلى ميورقة جماعة من العلماء. **معجم البلدان**، 246/5.

يأويان تبتُّلًا إلى غار خارج باب كشوط[1] إلى أن مات الشيخ ودُفن خارج باب عليّ[2] ، وقبره الآن هنالك مزار مقصودٌ مُبارك ، رحمة الله عليه ورضوانه".[3]

لقد آثرنا أن ننقل النص - على طوله - ؛ نظرًا لأهميته الشَّديدة في الإبانة عن الظُّروف التي أحاطت بتتلمُذ ابن المرأة على يد شيخه وأستاذه ومُرشده الرُّوحيّ: أبي عبد الله الشوذيِّ ، وطبيعة هذا الوليِّ **المغمور** ، الذي أثَّر تأثيرًا كبيرًا في شخص تلميذه ، وفي **المدرسة الشُّوذية** قاطبة. خاصة وأنَّ المصادر التَّاريخية ، كما ذكرنا ، لا تكاد تذكر شيخًا آخر لابن المرأة في التَّصوف ، تلقَّى على يديه تعاليمه الرُّوحية ، وآثر البقاء بصُحبته حتَّى وفاته ، وتشرَّب كلامه في الأدب والتَّفسير والتصوُّف ؛ لدرجة أنه كان يُخبر تلامذته بأنَّ جميع ما يسمعونه منه ، ويتلقَّونَه عنه ، ليس إلا بفضل استفادته من هذا المُربِّي الرُّوحيِّ العظيم.

كما يكشف النصُّ - في جانب منه أيضًا - عن كرامات هذا الولي الصَّالح ؛ إذ يذكر له كرامتين على الأقل ؛ هما: تلبية دعوة ابن المرأة وانضمامه إليه في التَّوِّ واللحظة ، ومعرفته بأمر المشهدة واستخراج غيرها من تحت الصَّحيفة.

كما يكشف النصُّ أيضًا عن طريقته ؛ أو بالأحرى مذهبه في التصوُّف. فمن جهة أولى يبدو الشُّوذيُّ شديد التمسُّك بكتاب الله تعالى ؛ "فهو أحقُّ أن يُفتتح به" ، وبسنَّة نبيه ﷺ: "ثمَّ قرأتُ عليه حديثَ رسول الله ﷺ". ومن جهة أخرى ، يبدو الشوذيُّ شديدَ الولع بالشِّعر والأدب ، مما أثَّر في تكوين تلميذه ابن المرأة ، الذي يقول عنه صاحب **الإحاطة** ، مادحًا:

"وكان الكلام أغلب عليه ، فصيح اللسان والقلم (...) وكان بحرًا للجمهور بمالَقة ومُرْسية ، بارعًا في ذلك مُتفنِّنًا له ، مُتقدِّمًا فيه ، حسن الفهم لما يُلقيه ، له وثوبٌ على التَّمثيل والتَّشبيه ، فيما يُقرِّب للفهم (...)

([1]) يقع في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة ، وقد أمر يغمراسن ببنائه وتحصينه بأبراج وأسوار عالية. وأصبح يُعرف في العهد العثماني بباب الأرجوحة ؛ لكثرة الإعدامات شنقًا بالقرب منه ، قبل أن يأخذ اسم باب فاس. انظر: **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** ، ص 207.

([2]) يعرف الآن بباب سيدي الحلوي. يقع هذا الباب في شمال المدينة ، واتخذ أسماء عديدة ؛ منها: باب الزاوية نسبة إلى زاوية سيدي الحلوي ، و باب علي نسبة إلى الحي الذي يوجد فيه. انظر: الحافظ التنسي (أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الجليل بن عبد الله التلمساني المتوفى سنة 899هـ) ، **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان** ، تحقيق: محمود أبو عياد ، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ،1985) ، ص 117.

([3]) **تاريخ بني زيان المعروف ببغية الرواد في ذكر الملوك بني عبد الواد** ... ، المجلد الأول ، ترجمة رقم 93 ، ص 65-68. **والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان** ، ص 68-70.

وكان صاحب حيل ونوادر مُستظرفة ، يُلهي بها أصحابه ، ويُؤنسهم ، ومُتطلعًا على أشياء غريبة من الخواصِّ وغيرها ، (...) واطلع كثيرٌ ممَّن شاهده على بعض ذلك".[1]

لكن على الرُّغم من تمسُّك الشُّوذيِّ بالكتاب والسنَّة ؛ فإنَّه لم يسلم مع ذلك من نقد وهجوم الآخرين ؛ حيث ألَّف ابن الزُّبير (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزُّبير الثَّقفيُّ العاصميُّ الغَرْنَاطِيُّ: 627-708هـ)- صاحب كتاب **صِلَةُ الصِّلة أو تاريخ علماء الأندلس**- كتابًا بعنوان: **رَدْعُ الجاهل عن اعْتِسَاف المجاهل في الردِّ على الشُّوذيَّة وإبداء غوائلها الخفيَّة**.[2] كما ألَّف في نقد الشُّوذية غير ابن الزبير ، مُعاصره أبو عبد الله محمَّد بن عمر المعروف بابن رشيد ، وسمَّى كتابه: **إماطة الأذيَّة النَّاشئة من سُبَاطَةِ الشُّوذيَّة**.[3]

وفي تفسيره المسمَّى: **ملَاك التَّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتَّعطيل في توجيه المتشابِه اللفظ من آي التَّنزيل** ، يعرض ابن الزُّبير للشُّوذيَّة عند تفسيره للآيتين العاشرة والحادية عشرة من سورة النَّمل: {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} ؛ إذ يقول:

"والاستثناء منقطع ، وليس المُراد إلَّا مَن ظلم مِن الرُّسُل ، ولا يكون من الاستثناء المُتَّصل ؛ كما قاله بعضُ المُحرِّفين من ذوي الضَّلال ؛ فإنَّ الرُّسُل - عليهم السَّلام - معصومون من الكفر مُطلقًا باتِّفاقٍ مِنْ أهل القبلة ؛ إلَّا ما قالته **الشُّوذيَّة** ومَن قال بقولهم من المارقين ممَّن لا عِبْرة به".[4] ومضمون كلامه يؤدِّي إلى نفي الشُّوذيَّة العصمة المُطلقة عن الرُّسُل ، مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ ابن الزُّبير لم يستشهد بأيٍّ من أقوالهم للتَّدليل على هذا الأمر.

([1]) **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، المجلد الأول ، ص 325.

([2]) **المصدر السابق** ، المجلد الأول ، ص 190. وانظر كذلك: مخلوف (محمَّد بن محمَّد بن عمر المتوفَّى سنة 1361هـ) ، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** ، (بيروت: دار الكتاب العربي ، 1979م) ، ص 212. وابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي المتوفَّى سنة 852هـ) ، **الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ، حقَّقه وقدم له ووضع فهارسه مُحَمَّد سيد جاد الحق ، (القاهرة: دار الكتب الحديثة ، 1385هـ/ 1966م) ، 89/1-91. وحاجي خليفة ، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ، عني بتصحيحه وطبعه مُحَمَّد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي ، (اسطنبول: وكالة المعارف ، 1360هـ- 1941م) ، 340/1. **والذيل والتكملة** ، ترجمة رقم 31 ، 39/1-45. وقد تحرَّفت كلمة "الشوذية" في عنوان كتاب ابن الزبير إلى "الشرذمة" في: **الدُّرر الكامنة** ، 90/1.

([3]) **الذيل والتكملة** ، ج1 ، ص 44 ، هامش رقم 3.

([4]) ابن الزبير (أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي المتوفَّى سنة 708هـ) ، **ملَاك التَّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتَّعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التَّنزيل** ، تحقيق سعيد الفلَّاح ، الطبعة الأولى (بيروت: دار الغرب الإسلامي ، 1403هـ/1983م) ، المجلد الثاني ، ص898.

كما أَلَّف ابن الزبير أيضًا: **أرجوزة في بيان مذهب الشُّوذيَّة** ، كانت - فيما يذكر ابن عبد الملك في كتابه **التكملة** - مُنحطَّة النَّظم ، ومَنفذا لطعن أعدائِه في مُصنَّفاتِه والتَّنقيص من قيمتِه العلمية ؛ "فإنَّهم يتَّخذونها سِخْريًا ويُردِّدونها هُزءَة ، ولقد كان الأولى به أن لا يتعرَّض لنظْمها ؛ فإنَّه مُنحطُّ الطَّبقة في النَّظم".[1]

أخيرا يكشف النَّصُّ عن الموقف من السُّلطة ، أو **الانقباض من السُّلطان** ، والذي يُوشك أن يُمثِّل تيارًا عامًا انضوى تحته أغلب زهَّاد ومتصوفة الأندلس. ففي حالات كثيرة نُصادف زهَّادًا ومتصوِّفة امتنعوا عن تولِّي مهام الحِسْبة والقضاء ، أو غيرهما من المناصب ، كما هرب العديدون منهم بعد أن أُجبِروا على تولِّيها لفترة من الزمن ، فادَّعوا الجنون ؛ كما في حالة أبي عبد الله الشُّوذيِّ ، أو لجأوا إلى التَّستُّر والخفاء. والبعض الآخر - كما شأن ابن العريف الصنهاجي الذي "تصدَّر بألمرية للإقراء ، وقد أقرأ بسَرَقُسطة ، ووَلِيَ الحسبة ببلنسِية"[2]- لم يجد حرجًا في تولِّي بعض المهام ، فكان من بين زُهَّاد ومتصوّفة الأندلس مَن تولُّوا الحسبة والقضاء والفتيا وصاحب الصلاة ...إلخ.[3]

أمَّا النَّصُّ الآخر المتعلِّق بأبي عبد الله الشُّوذيِّ ، مُؤسِّس المدرسة الشُّوذيَّة في التصوُّف وأستاذ ابن المرأة ، فننقله عن الذَّهبي في كتابه: **سِيَر أعلام النُّبلاء** ، حيث ينقل فيه رواية للمحدِّث أبي الفضل المرْسِيِّ ، حول لقاء ابن المرأة بشيخه الشُّوذي ، يقول فيها:

"حدَّثني ابن دهَّاق: حفظتُ وأنا شاب القرآن ، وكتُبا منها إحياء علوم الدِّين للغزالي ، فسافرتُ إلى تلمسان فكنتُ أرى رجلا زَرِيًّا قصيرًا طوله نحو ذراع [!] ، وكان يأخذ زنبيله[4] ويحمل السَّمك بالأُجرة ، وما رآه أحدٌ يصلِّي ، فاتفق أنِّي اجتزتُ يومًا وهو يُصلِّي ، فلمَّا رآني قطع الصَّلاة ، وأخذ يعبث[5] ، ثمَّ جاء العيدُ فوجدته في المُصلَّى ، فقلتُ: سآخذه معي أُطْعِمُه فسبَقَني [في الدَّعوة إلى الطعام]. وقال: قد سبقتُك ، احضر عندي ، فمضيتُ معه إلى المقابر ، فأحضر طعامًا حارًّا يُؤكَل في الأعياد ، فعجبتُ وأكلتُ.

([1]) يقول صاحب **الذيل والتكملة**: "وقد وقفتُ على فهرَسة رواياته ، وكتاب: **ردْع الجاهل** ، وبعض تاريخه في علماء الأندلس ، وأرجوزته المذكورة (...) وقد ولعتْ طائفةٌ من أهل مِصْرِه بالطَّعن على تصانيفه وتَنَقُّصِه بسببها ؛ ولا سيما ارجوزته المذكورة فإنهَّم يتخذونها سِخْريا ويردِّدونها هزءة". **الذيل والتكملة** ، ج 1 ، ص 44-45.

([2]) **المعجم في أصحاب القاضي الصَّدَفي** ، ترجمة رقم 14 ، ص 27.

([3]) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة ؛ راجع دراستنا: **من ابن مسرة إلى ابن عربي: التصوف الأندلسي في أصوله وامتدادته** ، دراسة غير منشورة ضمن أعمال ندوة "تحولات الفكر الأندلسي" التي نظمتها الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية في تطوان – المملكة المغربية يومي 11-12 دجنبر / ديسمبر 2014م.

([4]) الزنبيل هو: القُفَّةُ الكَبيرَةُ ، الجِرابُ ، الوِعاءُ.

([5]) دلالة على المنحى الملامتيّ عنده.

ثمَّ شرع يُخبرني بأحوالي كأنَّه كان معي ، وكنتُ إذا صلَّيتُ يُخيَّل لي نورٌ عند قدميَّ ، فقال لي: أنت مُعْجبٌ تظنُّ نفْسَك شيئًا ، لا ، حتَّى تقرأ العلوم. قلت: إنِّي أحفظ القرآن بالرِّوايات. قال: لا حتَّى تعْلَم تأويلَهُ بالحقيقة. فقلت: علِّمني. فقال: من غدٍ مُرْ بي في السَّمَّاكين. فبكرتُ فخلا بي في موضع ثمَّ جعل يُفسِّر لي القرآن تفسيرًا عجيبًا مُدهِشًا ، ويأتي بمعانيَ فبَهَرَني ، وقلت: أُحبُّ أن أكتُب ما تقول. فقال: كمْ تقولُ عُمْري ؟! قلتُ: نحْو سبعينَ سنة. قال: بل مئة وعشْر سنين [!] ، وقد كنتُ أقرأُ العلم أربعين سنة ثمّ تركتُ الإقراءَ ، فاسأل الله أن يُفَقِّهك في الدِّين ، فجعل كلَّما ألقى عليَّ شيئًا حفظتُه.

قال [ابن المرأة]: فجميعُ ما ترونه مَسَّني من برَكَتِه. وسمعته يقول [الشَّوذي]: قطبُ الأرض اليوم ابن الأشْقر ، أو قال: الأشقر[1] ، وإنْ مات قبلي فأنا أصيرُ القطب. ثمَّ قال المُرْسي: أنشدني ابن دهَّاق ، أنشدني الشَّوذي لنفسِه: إذا نطق الوجود أصاخ قوم بآذان إلى نطق الوجود ...". إلخ الأبيات.[2]

ومرَّة أخرى ، تضيء هذه الرواية زوايا معتمة فيما يتعلَّق بشخصية أبي عبد الله الشُّوذي: فمن جهة تقف بنا على أوصاف خِلْقَتِه ، فتوضِّح لنا أنَّه كان قزْمًا لا يتجاوز طوله ذراعًا واحدًا! ولربَّما ساعده ذلك على التأقلم والتكيُّف مع الصبيان ، الذين كان يراقصهم بحيث يبدو للناظر كما لو كان واحدًا منهم! ومن جهة أخرى ، تحدِّد الرواية أنَّ لقاء ابن المرأة بالشُّوذيّ كان في أخريات عمره ، حيث بلغ من السنِّ مئة وعشر سنين! كما تكشفُ عن منهجه الملامتي الواضح ، بحيث أنَّه كان يعمد إلى تخريب الظَّاهر مع إعمار الباطن. أخيرًا توضِّح الرواية المنزلة التي وصل إليها - أو التي كان يصبو إليها — الشُّوذيُّ ، حيث كان يعتبر نفسه في مرتبة "القطب" ، أو في انتظار أن يُصبح كذلك ، ليحلَّ محلَّ قطب عصره المُسمَّى بـ "الأشقر".

المدرسة الشوذية وأبرز أعلامها: ابن المرأة وأبن أحْلى وابن سبعين:

يتضمَّن كتاب **الإحاطة** لابن الخطيب ، إشارة أخرى أسهمت في إحداث لبس كبير لدى من ترجموا لابن المرأة ؛ ألا وهي تلك المتعلِّقة بتتلمُذ فيسلوف **الوحدة المطلقة** ، عبد الحق بن سبعين (ت 669هـ) على يدي ابن المرأة! إذ يقول ابن الخطيب ، في معرض ترجمته لابن سبعين ، ما نصُّه:

([1]) هو مُحَّد بن عبد الله بن عبد الرحمن الأموي الدَّاني ، نزيل سبتة ، يكنا أبا عبد الله ويعرف بالأشقر. كان عالي الرواية فاضلا مجاب الدَّعوة ، توفِّي في التَّاسع عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمس مئة [= 23 مايو 116م]. **التكملة لكتاب الصلة** ، ترجمة رقم 73 ، ج2 ، ص 25. **والذيل التكملة** ، ترجمة رقم 752 ، ص 284.

([2]) **سير أعلام النبلاء** ، الجزء الثالث والعشرون ، ص 315-316.

"وأخذ التَّحقيق عن أبي إسحاق ابن دهَّاق، وبرع في طريقة الشُّوذيَّة، وتجرَّد واشتُهر، وعظُم أتباعُه".[1]

ومع أن ابن سبعين لا يشير – كعادته - إلى تأثره بآراء ابن المرأة ؛ إلا أنَّ أحد شُرَّاح عهدِه يذكر صراحة فضلَ ابن المرأة عليه، فيقول في معرض ذكره للعلوم الضروريَّة:

"ولَمَّا كانت العلوم الموجودة في الشَّريعة والأعمال تنقسم إلى: فرض وندب، قيَّدها [ابن سبعين] بقوله: (الضَّرورية)، وعَنِيَ بها (المفروضة). ولَمَّا كان المفروض ينقسم إلى: فرض عين، وفرض كفاية ؛ وفرضُ العين يلزم كلَّ واحدٍ في ذاته، وفرضُ الكفاية يحمله البعضُ عن بعض، قيَّده بقوله: (التي لا يحملها أحدٌ عن أحد) (...) والعلوم الضَّروريَّة هي سبعة علوم: أوَّلُها العلم بحدوث العالَم، والعلم بوجوب صانعه، والعلم بقِدَم الصَّانع، والعلم بتوحيده، والعلم بصفاته، والعلم بتنزيهه، والعلم بجواز الرُّؤية". ثمَّ يُعقِّب على ذلك بالقول: "وهذه علوم عدَّدها أبو إسحاق ابن المرا [كذا]، وأخبر بوجوبها، وأنَّها فرضٌ على كلِّ مسلم".[2]

إلا أنَّ هذا الأمر - تتلمُذ ابن سبعين على يدي ابن المرأة - أمرٌ متعذَّرٌ تاريخيًّا ؛ فيما يؤكِّد أبو الوفا الغُنيمي التَّفتازانيّ، حيث يقول: "إنَّ ابن سبعين لم يتتلمذ على ابن دهَّاق بالأخذ عنه مباشرة ؛ لأنَّ ابن سبعين وُلد سنة 614هـ، وكانت وفاة ابن دهَّاق سنة 611هـ. ويبدو أنَّ ما ذكره المُترجمون لابن سبعين عن أخذِه عن ابن دهَّاق، يعني تتلمذه على كتبِه، أو أخذه عن بعض تلاميذ ابن دهَّاق ؛ كابن أَحْلى، إذ يذكر الفاسيُّ في **العقد الثمين** أنَّ ما ظهر به ابن سبعين مأخوذٌ من عقيدة ابن دهَّاق، وابن أَحْلى".[3]

وفي الأحوال كلِّها ؛ فإنَّ ابن الخطيب لم ينفرد وحده بتأكيد تأثُّر ابن سبعين الكبير بآراء ابن المرأة الأندلسيِّ، فها هو صاحب كتاب **العقد الثمين**، ينقل عن قاضي القضاة بدر الدِّين بن جماعة[4]

([1]) **المصدر السابق**، المجلد الرابع، ص 33.

([2]) مجهول، شرح عهد ابن سبعين لتلاميذه، ضمن كتاب: **رسائل ابن سبعين**، حقَّقه وقدَّم له عبد الرحمن بدوي، (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1973م)، ص 77.

([3]) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، **المدرسة الشوذية في التصوف الأندلسي**، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية في مدريد، المجلد الثالث والعشرون، السنة 1985 – 1986م، ص175-176. وانظر له أيضا: **ابن سبعين وفلسفته الصوفية**، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1973م)، ص 39.

([4]) هو بدر الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن إبراهيم بن عبد الله بن جماعة، الكنَانيُّ نسبا، الحمويُّ مولدا، الشافعيُّ مذهبا المتوفَّى سنة 733هـ. ولد بحماة ليلة السبت الرابع من ربيع الآخر سنة 639هـ، وقاد حركة التَّدريس لأكثر من نصف قرن في كُبريات مدارس مصر والشَّام، ومن أحفاده الشيَّخ عبد الغني النابلسيّ (1050-1143هـ). ومن مؤلَّفات ابن جُماعَة كتاب "تذكرة السَّامع والمتكلِّم في آداب العالِم والمتعلِّم" الذي طُبع بدائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدّكن بالهند سنة 1353هـ باعتناء السيد مُحَمَّد هاشم الندوي. راجع ترجمته في: اليافعي

قوله - وقد حضر مجلس ابن سبعين-: "ولا شك [في] أنَّ الذي ظهر به ابن سبعين ، هو مسروقٌ من عقيدة ابن المرأة ، وابن أَحْلَى وأتباعه ؛ إذ كانوا كلَّهم اشتغلوا بمُرْسِيَة".[1]

ثم يستطرد الفاسيُّ قائلا: "ولنذكر شيئًا من حال هذين الرَّجلين [ابن المرأة وابن أَحْلَى] ؛ لنفهم منه انحلالهم وانحلال ابن سبعين من الشَّريعة. فأمَّا ابن أَحْلى ؛ فهو على ما وجدتُ بخطِّ أبي حيَّان [الأندلسيِّ] ، نقلا عن الأستاذ أبي جعفر بن الزُّبير[2]: أبو عبد الله محمَّد بن علي بن أَحْلَى اللورَقِيُّ[3] ، كان لَزِم بمُرْسِيَة ابنَ المرأة ؛ وهو أبو إسحاق إبراهيم بن يوسُف بن محمَّد ابن دهَّاق الأَوْسِيُّ المالَقِيُّ ، شارح [نُكَت] الإرشاد [في الاعتقاد] لإمام الحرمين [الجُوَيني] ، ونقل عنه مذهب ابتداعٍ لم يُسْبَق إليه ؛ فمن ذلك قولهم بتحليل الخمر ، وتحليل نكاح أكثر من أربع ، وأنَّ المُكلَّف إذا بلغ درجة العلماء عندهم ، سقطت عنه التَّكاليف الشَّرعية (...) وقد استبان بهذا شيءٌ من حال ابن أَحْلى ، وابن المرأة ؛ لأنَّه [ابن سبعين] أخذ عنه [عن ابن المرأة]".[4]

وبهذا يشترك ابن أحْلى مع ابن دهَّاق في تطوير آراء المدرسة الشُّوذيَّة وتأثُّر ابن سبعين بتعاليمهما. فمن الثابت تاريخيًّا أنَّ ابن أَحْلى (580- 645هـ) قد "أخذ الكلام عن أبي إسحاق بن المرأة ، وكان مُتكلِّمًا داعية إلى اعتقاد مذهب الشُّوذيِّ ، ناصرًا له حاملًا عليه ، وعنه انتشر واشتُهر ، وصنَّف فيه وفي التَّفسير على طريقته ، وفي العقائد مُصنَّفات كثيرة ؛ منها: العقيدتان الكبرى والصُّغرى (...) ، وألَّف كتابه المُسمَّى بـ "التَّذكرة" ثمَّ اختصره ، وبذلك [المُختصر] كان ابتداؤهم في قراءتهم ، ولم يتضمَّن هذا الكتاب سوى إنكار الحديث ، والإشارة إلى أنَّ الأمَّة بدَّلتْ وغيَّرتْ ؛ كما فعل غيرُها من الأمم ، حتَّى عمَّ ذلك على دعواه".[5]

وينقل عن ابن الزبير الثقفيِّ قوله: "كان محمَّد بن أحْلى قد لزم بمُرسِيَة أبا إسحاق إبراهيم بن يوسُف بن دهَّاق ؛ المعروف بابن المرأة ، ونقل عنه مذهب ابتداعٍ لم يُسْبق إليه ، وقد بسطتُ القولَ

(عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي اليمنيّ المكيّ الشَّافعيّ المتوفّى سنة 768هـ) ، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان** ، (الهند: دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن ، 1337-1339هـ) ، الجزء الرابع ، ص 287-288.

([1]) الفاسي (تقي الدِّين محمَّد بن أحمد الحسنيّ الفاسيّ المكيّ المتوفَّى سنة 832 هـ) ، **العِقْد الثمين في تاريخ البلد الأمين** ، تحقيق فؤاد سيد ، الطبعة الثانية ، (بيروت: مؤسسة الرسالة ، 1405هـ- 1985م) ، الجزء الخامس ، ص 329.

([2]) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفيّ الغَرْنَاطيّ المتوفَّى سنة 708هـ. من مؤلَّفاته كتاب "**صِلَةُ الصِّلة**" ، وصل به كتاب ابن بَشْكَوال "**الصِّلَة**" في تراجم رجال الأندلس. **المصدر السابق** ، ج5 ، ص 330 ، هامش رقم 1.

([3]) لُورَقَةُ: بالضم ثم السكون ، والراء مفتوحة والقاف ، ويقال: لُرْقَة ، بسكون الراء من دون واو. وهي مدينة بالأندلس من أعمال تدمير. انظر: ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت المتوفّى سنة 626هـ) ، **معجم البلدان** ، (بيروت: دار صادر ، 1397هـ - 1977م) ، المجلد الخامس ، ص 25.

([4]) **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين** ، الجزء الخامس ، ص 329-330.

([5]) **الذيل والتكملة** ، ترجمة رقم 1178 ، 436/6- 439.

فيه في كتاب: **ردع الجاهل عن اعتساف المجاهل**، وفيه زجرٌ طويلٌ أوضحْتُ فيه أصْلَ المذهب المُسمَّى عند ابن أحْلى: التَّحقيق (...)، وأُنبِّه هنا على ما يُسْتَشْعَرُ منه نزوحُ هذا المذهب عن سُنَن المسلمين؛ فمن ذلك قولهم بتحليل الخمر ...".[1]

لكنه يختلف عن ابن المرأة في اهتمامه بالجانب السياسيِّ، حيث تأمَّر ابن أحْلى في "لُورَقة" مُنْتقِلًا من الدِّراسة إلى الرئاسة. ولَمَّا احتلَّ الرُّوم مُرْسِيَة، في شوَّال سنة 640هـ / مارس 1243م، قاومهم ابن أحْلى، فقصدوه بالشَّرِّ، فسالمَهم إلى أن تُوفِّي في مقرِّ إمارته سنة 645هـ / 1247م.[2] وبهذا يكون ابن أحْلى قد حاول أن يلعب مُجدِّدًا دورًا مُشابها لذلك الدَّور الذي قام به إمامُ ثورة المُريدين في الأندلس؛ ابنُ قَسِيٍّ (ت 546هـ)، صاحب كتاب: **خلْعُ النَّعْلَيْن**[3]، إلَّا أنَّ محاولتَه القيامَ بثورةٍ سياسيةٍ ذات أبعادٍ صوفيةٍ باءت بالفشل، مثلما فشلت ثورة ابن قَسِيٍّ من قبل.

وضمن هذا السِّياق يذكر صاحب: **الذيل والتكملة** - في معرض ترجمته لابن أحْلى - أنه قد امتُحن بسبب ما أُشيع عن آراءه "فاسْتُدعي من مُرْسِيَة أوَّل أمرِه، وحُمِل إليها مثقَّفًا وسُجن بها، ثم أُفْلِتَ، وبعد ذاك أتته فرصةٌ فانْتهزَها وتأمَّر ببلده، فأمكنه ما لم يُمكنه قبل ذلك، ورام حمل أهل بلده على مذهبِه بالإكراه، ثمَّ رأى أنَّ ذلك لا يتأتَّى له ولا يتمُّ، فعدل إلى طريقةٍ أخرى من تقريب مَنْ أخذ في القراءة معه وأوَى إليه، وطَرْدِ مَنْ عدَاهُم (...) فلم يمكن أحدًا من خواصِّ أهل بلده إلَّا التَّظاهُر بالاستجابة له، إبقاءً على نفوسِهم وأموالهم (...) وزاد ذلك المذهب مع مرور الأيَّام شياعًا، وكثُر أتباعه فيه من أهل بلدِه، وتظاهر في أحكامه وتدبير أمره بالعدل التَّام والتَّسوية بين القوي والضَّعيف، والقريب والبعيد؛ إلَّا فيمن نافَرَه في مذهبِه (...) فحسُنت أحوال أهل بلده في ذلك في دنياهم".

([1]) **المصدر السابق**، 437/6. ويعقِّب صاحب **الذيل** على كلام ابن الزبير بالقول: "كان ابن الزبير قد بعث إليَّ بـ "ردع الجاهل" وبالرجز المذكورين، فأمَّا "ردع الجاهل" فأقلُّ شيءٍ فائدةً، وأبعدُهُ عن النَّفع بعلمٍ، مع أنَّ بعض أصحابنا نقل لي عن بعض أصحاب ابن أحْلى أنهم يقولون: إنَّ ابن الزبير لم يفهم عنهم شيئًا من مذهبهم ولا يتلاقى كلامُه معهم فيه على علمهم في وردٍ ولا صدرٍ. وأمَّا الرجز المشار إليه فقد تقدَّم التَّنبيه عليه في رسم ابن الزبير ورداءة نظمِه وخلوِّه من المعنى، وأنَّه هُزْءٌ للمستهزئين (...) والله يُبقي علينا عقولَنا، ويرشدنا إلى ما يُرضيه عنا بفضله وكرمه؛ ثم إنْ صحَّ من مذهبهم ما نُسب إليهم من هذه الطوام فالتَّعبير عنه بقوله "يُستَشْعَرُ" و "نزُوح" تقصيرٌ عن ما ينبغي من تبيين ضلالهم وانسلاخهم من الملَّة الإسلامية؛ لردِّهم الكتابَ والسنَّة وإجماع الأمَّة، فحقُّه أن يقول ما يقطع بخروجٍ [عن الملة] أو ما معناه هذا، والله أعلم".

([2]) ابن الأبَّار (أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن أبي بكر القُضَاعِي المتوفَّى سنة 658هـ)، **كتاب الحُلَّة السِّيَرَاء**، حقَّقه وعلَّق عليه الدكتور حسين مؤنس، ذخائر العرب: 58، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار المعارف، 1985م)، الجزء الثاني، ص 314. والزِّركليّ، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، الطبعة الخامسة عشرة، (بيروت: دار العلم للملايين، أيَّار/مايو 2002م)، الجزء السادس، ص 282.

([3]) هو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قَسِيٍّ، شيخ طائفة المريدين بغرب الأندلس وزعيم ثورتها ضدَّ المرابطين والموحِّدين. قُتل في جمادى الأولى سنة 546هـ. لمزيد من التفاصيل انظر: ابن قَسِي، **كتاب خلع النَّعلين واقتباسُ النُّور من موْضِع القدمين**، دراسة وتحقيق الدكتور محمَّد الأمرَاني، الطبعة الأولى، (آسفي: على نفقة المحقّق، 1418هـ - 1997م)، ص 22 وما بعدها.

ويستطرد صاحب **الذَّيل** موضِّحا أخلاقه فيقول: "وكان من التَّواضع وحُسن التَّمشية بحيث لم يفترق حالُه أيَّام إمرته وأيَّام غيرها قبلها ، وساس بلده أجملَ سياسة ، وكان جيد التَّدبير ، حسن الرَّأي في دنياه ، وَفِيَّ العهْد ، جزِلًا ، حليمًا ، مُتخلِّقًا ، لا يضيع عندَه حقٌّ لأحد ، ولا يُنْفَقُ عندَه الجاه ، بل كان أولادُه وخاصَّتُه وأقلُّ أهل بلدِه عندَه في درجة واحدة ، فجلب هذا المُرتكَب نفوسَ كثير من الضُّعفاء ، واستهوى الجهلة الأغبياء [!!] ، واستحسنوا تلك الظَّواهر ، ولم يعلموا ما أكنَّتْهُ من سوء الاعتقاد تلك الضَّمائِرُ ، فشاع ذكرُه ، ورحل إليه كثيرٌ من جَهَلَةِ ما يليه من البلاد للقراءة والتَّعليم من كلِّ مَنْ ينتمي من الجهلَة إلى الخير [!!] ، فضلُّوا بضلالةٍ ، واستمرت حالُه على ذلك إلى موتِه ، وقام جماعةٌ من أصحابه بمذهبه إقراءً وتعليمًا ، وقعد بعضُهم بالجامع الكبير بلورَقة يُفسِّر الكتاب العزيز على طريقتهم في ذلك ، وانتقل بعضُهم إلى مُرْسِيَة وأقرأوا بها ذلك المذهب ، وما زال يفشو حتَّى ذهب ، وأخذهم الله بكفرهم وأراهم مثالا".[1]

ولا يملك المرء ، إزاء تلك الرواية ، سوى أن يستغرب كثيرًا من هذا الموقف المُعارض لثورة ابن أَحْلى ، التي سعت - من ضمن ما سعت ، بشهادة صاحب **الذيل** نفسه - إلى تحقيق نموذج للعدالة الاجتماعية ، والمساواة في المجتمع الأندلسيِّ الذي طالما عانى أهلُه من الفقراء والمُستضعفين ويلات الجوع والحاجة والحرمان ، وتكدَّست ثرواتُه في أيدي النُّخبة الحاكمة من الخلفاء والأمراء والفقهاء ، ومن دار في فلكهم من الأدباء والشعراء!

صحيح أنَّ هذه التَّجربة لا تخلو مثل أيِّ تجربة بشرية أخرى من الأخطاء ، لكنها اتسمت على الأقل بثلاثة معالم إيجابية :

أولها: محاولة الوقوف في وجه الأطماع النَّصرانية الرَّامية إلى احتلال البلاد الأندلسية.

ثانيها: بناء نموذج سياسيٍّ قائم في جوهره على المساواة والعدالة الاجتماعية.

ثالثها: تثقيف المجتمع الأندلسيِّ وتعليمه مبادئ الطَّريقة الصُّوفية.

ثانيا: شيوخ ابن المرأة وأبرز تلامذته

بالإضافة إلى أبي عبد اللَّه الشُّوذيِّ ، تتلمذ ابن المرأة الأندلسيُّ على يد اثنين من كبار العلماء في عصره ؛ أحدهما كان صوفيًّا وثانيهما تتلمذ على يديه في الفقه.

([1]) **الذيل والتكملة** ، 6/437-438.

(1) **أبو الحسن عليُّ بن إسماعيل ابن محمَّد بن عبد الله بن حِرْزِهِمْ**: "كان من أهل العلم والفقه والعناية والرِّواية ، يغلب عليه الزُّهد والعبادة والتَّصوُّف. دخل إشبيلية وغيرها ، وأخذ عن جماعة منهم: أبو الحسن بن خيار".[1]

وقد ترجم له ترجمة مطولة صاحب: **التَّشوّف إلى رجال التصوف** ، حيث قال: "من أهل فاس ، وبها تُوفِّي في أواخر شعبان عام تسعة وخمسين وخمس مئة (...) وكان فقيهًا ، حافظًا للفقه ، زاهدًا في الدُّنيا ، سالكًا في التصوُّف سبيل أهل الملامتية. وكان أبو الحسن يقول: اعتكفتُ على قراءة إحياء علوم الدِّين للغزالي في بيت مدَّة عام ، فجرَّدتُ المسائل التي تُنْتقد عليه وعزمتُ على حرق الكتاب [الإحياء]. فلمَّا نمتُ رأيتُ قائلًا يقول: جرِّدوه وأضربوه حدَّ الفِرْيَة! فضُربتُ ثمانين سوطًا. فلمَّا استيقظتُ جعلتُ أقلِّبُ ظهري فوجدتُ به ألما شديدًا من ذلك الضَّرب ، فتبتُ إلى الله تعالى ممَّا اعتقدتُ. ثمَّ بعد ذلك تأمَّلْتُ تلك المسائل فوجدتُها مُوافِقة للكتاب والسُّنَّة".[2]

أمَّا صاحب: **الأنيس المُطْرِب بروْض القِرْطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ؛ فيذكر أنَّ في سنة تسع وخمسين وخمس مئة "توفِّي الشَّيخ الفقيه الصَّالح الفاضل عليُّ بن إسماعيل بن محمَّد ابن عبد الله بن حِرْزِهم (...)، فدُفن بخارج باب الفتوح ؛ من أبواب مدينة فاس".[3] وبهذا يشترك أُستاذَيْ ابن المرأة: الشُّوذي وابن حرْزِهم ، في مجموعة من الاهتمامات التي غلبت عليهما ، وأثَّرتْ بدورها ، في تفكير تلميذهما ، وشكَّلت بالتَّالي تجربته الصُّوفية العملية من جهة ، مثلما شكَّلت مصدرًا علميًّا استقى منه ابنُ المرأة فلسفته الصُّوفية. وفي مقدِّمة هذه العناصر:

- **المنْحَى الملَامَتيّ** المُشترك بينهما ، والذي كان غريبًا على بيئة التصوُّف المغربيِّ والأندلُسيِّ في ذلك الحين ، ممَّا دعا ابن عيشون لأنْ يُعلِّق - في سياق ترجمته لابن حرزهم - على نهجه سبيلَ أهل الملامة/ الملامتية ، بالقول: "كان رحمه الله خيِّرا فاضلًا ، دَيِّنًا ورِعًا ، زاهدًا مُتقشِّفًا ، سالكًا لطريق الملامتية ، ولم يكن يُعْرَف ذلك الطَّريق بالمغرب ، فكان أهل البلد يُنكرون عليه بعض أحواله ، ولكن لصدقِه كانت

(1) **التكملة لكتاب الصلة** ، الجزء الثالث ، ترجمة رقم 612 ، ص 243- 244. **والتشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي** ، ترجمة رقم 51 ، ص 168-173.

(2) **المصدر السابق** ، ص 168-169.

(3) ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي المتوفَّى سنة 741ه)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ، راجعه عبد الوهاب بنمنصور ، الطبعة الثانية (الرباط: المطبعة الملكية ، 1420ه- 1999م)، ص 348.

القلوبُ مائلة إليه".[1] وفي السِّياق ذاته أيضًا يذكر ابن عيشون أنَّ الشَّيخ أبا مدين الغوث[2] "أخذ عن جماعة من الأكابر ؛ منهم: الشَّيخ أبو الحسن علي بن حرْزِهم ، دفين خارجِ باب الفتوح".[3]

- **الاهتمام بتأويل القرآن** حيث برع فيه كلٌّ منهما وتابعهما ابن المرأة الأندلسي ، كما يتضح من خلال تفسيره للعديد من آيات القرآن في كتابه: **القوانين**.
- **مركزية كتاب الإحياء** حيث يحتل مكانة مهمَّة في تعاليم الشَّيخ ابن حرْزهم ، وكذلك في اهتمام ابن المرأة به.
- ينفرد ابن حرزهم عن أبي عبد الله الشُّوذيّ بـ **الاشتغال بعلم الكلام** إلى جانب كونه قد "اجتمعت فيه خصالٌ ما اجتمعت في غيره: الفقه في المسائل ، والفقه في الحديث ، ومعرفة التَّفسير والتصوُّف". ويُعقِّبُ ابن عيشون على ذلك بالقول: "وأمَّا الكلام على الرِّعاية [لحقوق الله] وكلام المُحاسِبي فلم يخْلُفُه مثلُه في ذلك ، مع الورع والزُّهد في الدُّنيا ، والتَّخشُّن في الملبس (...) ، اجتمعت القلوبُ على محبَّته".[4]

(2) **أبو الحسن ابن حنين**: روى عنه ابن المرأة مُوطَّأ الإمام مالك.[5] ولا نكاد نعلم عنه شيئًا آخر ، أو عن شيوخ وأساتذة آخرين لابن المرأة.

([1]) ابن عيشون (أبو عبد الله محمد بن عيشون الشَّراط المتوفَّى سنة 1109هـ) ، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس** ، دراسة وتحقيق زهراء النَّظَّام ، سلسلة رسائل وأطروحات: رقم 35 ، الطبعة الأولى (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، 1997م) ، ص 58.

([2]) هو شُعيب بن الحسين الأنصاري المعروف بأبي مدين الغوث ، أندلسي الأصل حيث ينتمي لأحواز إشبيلية ، قدم فاسا فأخذ عن علمائها وصحب خلال إقامته بها الشيخ أبي يَعْزَى. ولد سنة 815هـ ، وتُوفِّي بناحية تلمسان حوالي سنة 580هـ. راجع ترجمته في: **التشوف إلى رجال التصوف** ، ترجمة رقم 162 ، ص 319-327.

([3]) **الروض العطر الأنفاس** ، ص 82. وكذلك يورد ابن السَّاحلي في **بغية السَّالك** تتلمذ أبي مدين على يديه فيقول: "ورد عليه الشَّيخ أبو مدين بفاس ، فصار يتردَّد إلى مجلسه في طلب العلم وإلى مجلس غيره. قال أبو مدين: فكنتُ كلما سمعت من الشَّيخ أبي الحسن يَعْلق بقلبي فأنتفع به ، وما أسمعه من غيره لا يعلق بقلبي ، فذكرت ذلك للشَّيخ [ابن حرزهم] ، فقال: إنَّ الكلام إذا خرج عن صدق من القلب صادف القلب فانتفع به. قال [أبو مدين]: ولازمته وانتفعت به". نقلا **عن** ابن عيشون ، **المصدر السابق** ، ص 65.

([4]) **الروض العطر الأنفاس** ، ص 59. ومن المعروف أنَّ ابن حرزهم قد تجرَّأ وعارض السُّلطان الذي أمر بطرح جثَّة أبي الحكم بن بَرَّجان (ت 536هـ) على المزبلة وألا يُصلَّى عليه ، فأمر الشيخ خادمه بأن يُنادي في أسواق مرَّاكش وطرُقها: "يقول لكم ابن حرْزِهم: احضروا جنازة الشَّيخ الفاضل الفقيه الزَّاهد أبي الحكم بن بَرَّجان ، ومن قدَر على حضورها ولم يحضُر فعليه لعنة الله". **التَّشوُّف إلى رجال التصوُّف** ، ص170.

([5]) **التكملة لكتاب الصلة** ، الجزء الثاني ، ص 140. وانظر أيضا: **الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام** ، الجزء الأول ، ص 153. **وكتاب الوافي بالوفيات** ، 171/6.

أمَّا فيما يتعلق بتلامذته؛ فقد أخذ عن ابن المرأة جمعٌ غفيرٌ من طلبة العلم في مختلف فروع: الفقه، والتفسير، وعلم الكلام، والتصوف. في مقدِّمتهم:

(1) الإمام العلَّامة البارع القدوة المُفسِّر المُحدِّث النَّحوي ذو الفنون شرف الدِّين أبو عبد الله **محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن أبي الفضل السُّلَمِيِّ المُرْسِي الأندلُسيّ** (ت 655هـ). تذكر المصادر المُترجمة له أنَّه ارتحل إلى مالَقَة سنة تسعين وخمس مئة، فقرأ على أبي إسحاق بن إبراهيم بن يوسُف بن دهَّاق.[1]

(2) **أبو عبد الله بن أَحْلَى**، ذكره لسان الدِّين ابن الخطيب فيمن روى عنه.[2] ولا شك في أنَّه يعدُّ من أكثر تلامذة ابن المرأة إفادةً منه، حيث عمل من بعده على نشر **الطَّريقة الشُّوذيّة** ليس فقط في حدود إمارته الصَّغيرة؛ وإنَّما في شتَّى ربوع الأندلس؛ وذلك بفضل تلامذته الذين تفرَّقوا في البلاد واشتغلوا بالتَّعليم والإقراء.

(3) **أبو عثمان سعيد بن عبد الله المعروف بالجمل**: وهو "الشَّيخ الفقيه، العالم المُحصِّل المُحقِّق (...) من أصحاب الشّيخ أبي إسحاق ابن المرأة[3] المعروف بابن دهَّاق. له علم بأصول الدِّين وأصول الفقه والتصوُّف، وهو من كبار أهل العلم، جلس للإقراء ببجاية ودرس عليه ناس (...) وكان له جلالٌ ووقارٌ وانعزالٌ عن النَّاس واقتصارٌ على الاشتغال بالعلم، وكانت له كفاية أعانته على التَّخصُّص وسلوك الخير واقتفاء طُرق البِر".[4]

(4) **أبو محمَّد عبد الرحمن بن وُصْلَة**.[5]

(5) **أبو بكر عبد الرَّحمن بن عبد الله بن موسى بن سُليمان الأزدي المُرْسِي، المعروف بابن برطلة** (547- 599هـ)[6]: يذكر صاحب كتاب: **نيل الابتهاج** أنَّه تولَّى "قضاء دانية، ثمَّ صُرِف حميد السِّيرة، معروف النزاهة، وولي خطابة جامع مُرْسِيَة. وكان حافظًا للحديث، راويًا مُتفنِّنًا، ذا حظٍّ في العربية والأدب، مع حُسْن سمتٍ وجمال الشَّارة وفصاحة وجلالة ونباهة

([1]) **سير أعلام النبلاء**، ج 23، ص 315.

([2]) **الإحاطة في أخبار غرناطة**، المجلد الأول، ص 326. وانظر أيضًا: ابن الخطيب، **روضة التعريف بالحب الشريف**، عارضه بأصوله وعلَّق حواشيه وقدَّم له محمَّد الكتَّاني، الطبعة الأولى (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1960م)، الجزء الثاني، ص 604.

([3]) ورد في النص "ابن البرا"، وأخطأ محقِّق الكتاب فرجَّح أن المقصود به ابن العرَّافة: أبو إسحاق ابن العرَّافة، ولي صلاة الفريضة والخطابة بالجامع الأعظم من بجاية، كان مُعتكفًا على ما هو بسبيله منزويًا عن النَّاس، وكان له مجلس للتدريس بالجامع الأعظم يدرّس الرواية والدراية". راجع ترجمته في: الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله المتوفَّى سنة 714هـ)، **عنوان الدِّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، حقَّقه وعلَّق عليه عادل نويهض، الطبعة الثانية (بيروت: دار الآفاق الجديدة، نيسان/إبريل، 1979م)، ترجمة رقم 77، ص 256.

([4]) **المصدر السابق**، ترجمة رقم 59، ص 225.

([5]) **الإحاطة في أخبار غرناطة**، المجلد الأول، ص 326. **والإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، 153/1.

([6]) **الدِّيباج المُذْهَبُ في معرفة أعيان علماء المذهب**، الجزء الأول، ص 274.

السَّلف. تُوفِّي بمُرْسِية في ربيع الأول سنة تسع وتسعين وخمس مئة".[1] سمع منه قاضي تونس ؛ أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن علي الرَّفيع الرَّبعي المالكي ، الحاكم بتونس (636-778 هـ).[2]

(6) **ابن مُطَرِّف الأعمى** ، وهو من أصحاب ابن أَحْلَى والعفيف التِّلِمْسَانِي ، عاش بمُرْسِيَة وعدَّه أبو حيان الأندلسيّ من غُلاة القائلين بـ**الوحدة المطلقة**.[3]

(7) الحاجّ المغربي ، وهو **يس المغربي الحجَّام الأسود** المُتوفَّى سنة 687هـ. كان جرائحيًّا على باب الجابية ، وكان صاحب كشف وحال. وكان الإمام النووي[4] - رحمه الله - يزورُه ويتَّلمذ له. تُوفِّي في ربيع الأول [سنة سبع وثمانين وست مئة] ، وقد قارب الثمانين.[5] يقول عنه اليافعيُّ في **مرآة الجنان**: "وفيها [سنة سبع وثمانين وست مئة] تُوفِّي السَّيد الجليل ، الوليُّ المشكور ، المشهور بالأسرار والكرامات والإكرام ؛ الشَّيخ ياسين المغربي الحجَّام ، كان من أُولي الأنفاس الصَّادقة ، والأحوال والكشوفات الخارقة ، مُستتِرًا بالحجامة عن ظهور الولاية والكرامة (...) ، وكان السَّيد الجليل الشيخ الإمام محيى الدِّين النواويُّ [كذا] يزوره ، ويتبرَّك به ويتَّلمذ له ، ويَقْبَلُ إشاراته ، ويمثُل ما أمره به. ومن جملة إشاراته المباركة أنَّه أمر الشَّيخ

([1]) التُّنْبُكتِيّ (أبو العباس أحمد بابا الصنهاجي المتوفَّى سنة 963هـ) ، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** ، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ، وضع هوامشه وفهارسه طلاب كلية الدعوة الإسلامية ، الطبعة الأولى (طرابلس الغرب: منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، 1398هـ[من وفاة الرسول] — 1989م) ، ترجمة رقم 179 ، ص 239.

([2]) الذهبي ، **ذيل تاريخ الإسلام** ، اعتنى به مازن بن سالم باوزير ، الطبعة الأولى (الرياض: دار المُغني للنشر والتوزيع ، 1998م) ، الجزء 53 ، ص 377- 378.

([3]) أبو حيان الأندلسي (أثير الدين مُحَمَّد بن يوسف المتوفَّى سنة 745هـ) ، **تفسير البحر المحيط** ، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي مُحَمَّد معوض ، الطبعة الأولى ، (بيروت: دار الكتب العلمية ، 1413هـ - 1993م) ، الجزء الخامس ، ص 33.

([4]) محيى الدِّين النَّووي ، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرّي بن حسن الشَّافعي. ولد سنة 631هـ وتوفِّي سنة 677هـ. راجع ترجمته في: السُّبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهَّاب بن علي بن عبد الكافي المتوفَّى سنة 771هـ) ، **طبقات الشَّافعية الكبرى** ، تحقيق عبد الفتاح مُحَمَّد الحلو ومحمود مُحَمَّد الطناحي ، الطبعة الأولى (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ، 1963م) ، الجزء الثامن ، ترجمة رقم 1288 ، 8/395-400. حيث يقول عنه السبكي: "كان يحيى رحمه الله سيد وحصُورا ، ولَيْثًا على النفس هصُورا ، وزاهدا لم يُبال بخراب الدُّنيا إذا صَيَّر دينه رَبْعًا معْمُورا ، له الزُّهد والقناعة ، ومتابعة السَّالفين من أهل السنَّة والجماعة ، والمصابرة على أنواع الخير ، لا يصرف ساعة في غير طاعة ، هذا مع التَّفنُّن في أصناف العلوم ، فِقْها ومتونَ وأحاديثَ ، وأسماءَ رجال ، ولغة ، وتصوُّفًا ، وغير ذلك (...) وقال شيخه في الطَّريقة ، الشيخ ياسين بن يوسُف الزَّرْكَشِيّ ، رأيت الشيخ محيى الدِّين ، وهو ابن عشر سنين ، والصبيان يُكْرِهُونَه على اللعب معهم ، وهو يهرب منهم ويبكي ، لإكراههم ، ويقرأ القرآن في تلك الحال ، فوقع في قلبي حبُّه (...) فأتيت الذي يُقرئه القرآن ، فوصيتُه به ، وقلت له: هذا الصبي يُرْجَى أن يكون أعلمَ أهل زمانه وأزْهَدَهم ، وينتفع النَّاس به. فقال لي: مُنَجِّمٌ أنت ؟ فقلت: لا ، وإنَّما أنطقني الله بذلك".

([5]) ابن العماد (شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمَّد الحنبليّ المتوفَّى سنة 1089هـ) ، **شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب** ، أشرف على تحقيقه وخرَّج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط ، حقّقه وعلَّق عليه محمود الأرناؤوط ، الطبعة الأولى (دمشق- بيروت: دار ابن كثير ، 1412هـ - 1991م) ، المجلد السابع ، ص 704. وأيضا الذَّهبي ، **نصٌّ مُستدرك من كتاب العِبَر** ، تحقيق رياض عبد الحميد مراد ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثالث ، المجلد الحادي والخمسون ، رجب سنة 1396هـ - تموز/يوليو 1976م ، ص551.

مُحيى الدِّين أن يردَّ الكتب المُستعارة إلى أهلها ، وأن يعود إلى بلاده ويزور أهله ، ففعل ذلك ، ثمَّ تُوفِّي عند أهله. قلتُ [اليافعي]: ومثل هذا السَّيد الذي كان الشَّيخ الإمام العالي المقام الممدوح بين الأنام محيى الدِّين النواوي يتبرَّك به ويتَّلمذ له ويتأدَّب معه ، ينبغي أن يُفخَّم ويُعظَّم ويُبجَّل ويكرَّم".[1]

وبحسب ابن الخطيب ؛ فإنَّ الحاج المغربيَّ يتابع شيخَه ابن المرأة في اعتبار الوجود الخارجيِّ مجرد وهْم ، وأنَّه إذا سقطت الأوهام صار مجموع العالَم بأسره وما فيه واحد ؛ هو الحقُّ جلَّ وعلا ، "فالكلُّ واحدٌ وإنْ كان مُتفرِّقا ، فسُبحان من هو الكُلُّ ، ولا شيء سواه ؛ الواحد في نفسِه ، المُتعدِّد بنفسِه ، لا إله إلا هو".[2]

ثالثا: مكانة ابن المرأة العلمية

احتلَّ ابن المرأة مكانًا مُتقدِّمًا في العلوم والآداب ، وحاز بسبب ذلك شهرة كبيرة أثارت نفوس بعض حسَّاده ، كما أثار مذهبه الصُّوفيُّ وطريقته الشُّوذية ، فضلًا عن اهتماماته الكلامية ، حفيظة وانتقاد بعض الفقهاء فشنُّوا هجومًا حادًّا ضدَّه وضدَّ ممثلِّي المدرسة الشُّوذيَّة بصفة عامَّة. لكن على الرُّغم من ذلك فقد شهد له بالعلم والفضل عددٌ من العلماء الذين ترجموا له ، وفي مقدِّمتهم: ابن الخطيب الذي وصفه بأنه: "كان متقدِّمًا في علم الكلام ، حافظًا ذاكرًا للحديث والتَّفسير ، والفقه والتَّاريخ ، وكان بحرًا للجمهور بمالَقَة ومُرْسية بارعًا في ذلك مُتفنِّنًا له ، مُتقدِّمًا فيه ، حسن الفهم لما يُلقيه ، له وثوبٌ على التَّمثيل والتَّشبيه ، فيما يُقرِّب للفهم ، مؤثرًا للخمول ، قريبًا من كلِّ أحد ، حسَن العشْرة ، مُؤثرًا بما لديه".[3]

كما وصفه ابن الأبّار بأنَّه: "كان فقيهًا حافظًا للرأي مشاورًا يُشارك في الأدب ، وغلب عليه علم الكلام فرأس فيه واشتُهِرَ به (...) وتجوَّل أحيانًا ودرَّس في غير ما بلدٍ ، وكانت العامَّة حزبَه ، ولم يزل

([1]) اليافعيّ (أبو محمَّد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان المتوفَّى سنة 768هـ) ، **مرآة الجِنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتَبر من حوادث الزمان** ، وضع حواشيه خليل المنصور ، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العملية ، 1417هـ- 1997م) ، الجزء الرابع ، ص 155.

([2]) **روضة التَّعريف بالحبِّ الشَّريف** ، ص 605.

([3]) **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، المجلد الأول ، ص325-326.

بمُرْسِية يُناظَر عليه ويُتَحلَّقُ إليه إلى أن تُوفِّي بها صدر سنة إحدة عشرة وست مئة".[1] كما وصفه الصَّفديُّ بأنه: "كان فقيهًا حافظًا للرأي ، ورأسًا في علم الكلام".[2]

وكتب إليه شرف الدِّين أبو عبد الله المُرْسِي:
[الكامل]

يا أيُّها العَلَمُ المُرَفَّعُ قَدْرُهُ أنتَ الذي فوق السِّمَاكِ حلولُه

أنت الصَّباح المُستنيرُ لمُبْتَغِي علم الحقائق أنتَ أنتَ دليلُه

بك يا أبا إسحاق يتَّضِحُ الهدَى بك تستبين فروعُه وأصولُه

مَنْ يزعُم التَّحقيق غيرك إنه مثل المُجوّز ما العقول تُحيلُه[3]

ومع ذلك لم يسلم ابن المرأة من تجريح بعض الفقهاء فيه ، وهو ما عبَّر عنه لسان الدِّين بن الخطيب بالقول: "قال الأستاذ أبو جعفر ، وقد وصمَه: كان صاحب حيل ونوادر مُسْتطرَفة ، يُلْهِي بها أصحابه ، ويُؤْنِسَهم (...) وشاهد منه بعضُّهم ما يمنعه الشَّرع من المُرْتكبات الشّنيعة ، فنافرَه وباعده بعد الاختلاف إليه ؛ منهم شيخنا القاضي العدل المسمَّى الفاضل ، أبو بكر بن المُرابط ، رحمه الله ؛ أخبرني مِن ذلك بما شاهد ممَّا يقبح ذكرُه ، وتبرَّأ منه مَنْ كان سعَى في انتقاله إلى مُرْسِيَة ، والله أعلم بغيبِه وضميرِه".[4]

([1]) **التكملة لكتاب الصلة** ، ترجمة رقم 429 ، 140/1. **والإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام** ، 153/1.

([2]) **كتاب الوافي بالوفيات** ، 171/6.

([3]) **سير أعلام النبلاء** ، ج23 ، ص 316.

([4]) **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، المجلد الأول ، ص325-326.

وفي مقابل ابن الخطيب الذي توقَّف في أمره ، لا يتورَّع أبو حيَّان الأندلسيُّ عن إدراج ابن المرأة ضمن من سمَّاهم: **زنادقة الأندلس!** يقول ابن حجر العسقلانيُّ في كتابه: **لسان الميزان** ، في معرض ترجمته لابن المرأة: "ذكره أبو حيان في زنادقة أهل الأندلس".[1]

والحال أنَّ هذا التَّجريح ربَّما كان بسبب ما صدر عنه من أمور يُعدُّها أهل الأندلس - فقهاء المالكية بصفة خاصة - من خوارم المروؤة في الدِّين ، أو ربَّما بسبب اشتغاله بعلم الكلام ، وانتمائه لمدرسة أبي عبد الله الشُّوذيِّ في التصوُّف. خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ "أبرز ما يميّز المدرسة الشُّوذية أنَّها كانت تمزجُ التصوُّف بالفلسفة ، فكان الشُّوذيُّ وابن دهَّاقٍ وابن أحْلَى وابن سبعين ، وطائفةٌ أخرى من صوفية الأندلس في عصرهم ، من القائلين بالوحْدة ، على اختلافٍ بينهم في تفاصيل هذه الوَحْدة ، وهذا هو الذي دعا فقهاء الأندلس إلى الحملة عليهم حملة شديدة ، ولم يميزوا أحيانًا بينهم".[2]

وكذلك توقَّف الشَّيخ أحمد زرُّوق (ت 899هـ) في الحكم على كلٍّ من: ابن المرأة وابن سبعين وابن أحْلى ؛ بل إنه نحى إلى تقديم حُسْن الظنِّ بهم جميعا. يقول مُعبِّرا عن رؤيته تلك في كتابه: **قواعد التصوُّف**: "التوقُّف في محلِّ الاشتباه مطلوبٌ كعدمه فيما تبيَّن وجهه من خير أو شرٍّ. ومبْنَى الطَّريق على ترجيح الظنِّ الحسَن عند مُوجِبِه ؛ وإنْ ظهر مُعارض [له] ، حتّى قال ابن فورك[3] ، رحمه الله: "الغلَطُ في إدخال ألف كافر بشُبْهة إسلامه ، ولا الغلط في إخراج مؤمن واحد بشُبْهةٍ ظهرتْ منه" (...) فمن ثمَّ اختُلف في جماعة من الصُّوفية كابن الفارض ، وابن أحْلا [كذا] ، والعفيف التِّلِمْساني ، وابن ذي سكين ، وأبي إسحق التُّجَيْبِي ، والشُّشتري ، وابن سبعين ، والحاتمي وغيرهم".

ويستطرد الشَّيخ زرُّوق قائلا: "وقد سُئل شيخُنا أبو عبد الله القوري ، وأنا أسمع ، فقيل له: "ما تقول في ابن عربي الحاتميِّ ؟" فقال: "أَعْرَفُ بكلّ فنٍّ ، من أهلِ كلِّ فن". فقيل له: "ما سألناك عن هذا ؟ فقال: "اختُلف فيه من الكفر إلى القُطبانيَّة. قيل له: فما ترجّحُ ؟ قال: التّسليم. قلتُ [ابن زرُّوق]:

([1]) ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد الكناني المتوفَّى سنة 852هـ) ، **لسان الميزان** ، تحقيق غنيم بن عباس غنيم ، الطبعة الأولى (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ، 1416هـ - 1996م) ، ترجمة رقم 393 ، 223/1.

([2]) **المدرسة الشوذية في التصوف الأندلسي** ، ص 176.

([3]) أبو بكر بن فورك: هو مُحَمَّد بن الحسن شيخ المتكلمين ، قال عنه ابن خلّكان: "أبو بكر الأصولي الأديب النحوي الواعظ ، درس بالعراق مدّة ثم توجّه إلى الرَّي فسعت به المبتدعة - يعني الكرامية- فراسله أهل نيسابور فورد عليهم وبنوا له مدرسة ودارا ، وظهرت بركته على المُتفقّهة ، وكان شديد الردِّ على ابن كرام ، وكان أشعريا رأسا في فنِّ الكلام". **وفيات الأعيان** ، الجزء الرابع ، ص 272.

لأنَّ في التَّكفير خطرًا، وتعظيمُه ربَّما عاد على صاحبه بالضَّرر من جهة اتّباع السَّامع لمُبْهَمَاتِه ومُوهِمَاتِه".[1]

رابعا: آثاره ومصنَّفاته

وصف لسان الدِّين بن الخطيب تواليف ابن المرأة بأنَّها: "نافعةٌ في أبوابها، حسَنَةُ الرَّصْف والمباني"[2]، وذكر منها:

(1) **شرحُ كتاب الإرشاد** لأبي المعالي الجُويني: "كان يُعلِّقه من حفْظِه من غير زيادةٍ وامتداد، في أربع مجلَّدات".

(2) **شرحُ الأسماء الحسنى**: ولعلَّه شرحٌ لكتاب: أسماء الله الحسنى لابن بَرَّجَان المتوفَّى سنة 536هـ.

(3) ألَّف جزءا في **إجماع الفقهاء**.

(4) **شرحُ محاسن المجالس** لأبي العباس أحمد بن العريف الصِّنْهاجي؛ وهو: **كتاب القوانين** المُجْمَع على صحَّة نسبته إليه، حيث ذكره جميعُ من ترجموا له. وكتاب القوانين في شرح محاسن المجالس" كان حتَّى وقت قريب في عداد المفقود، حيث جزم عددٌ من الباحثين بعدم وصول مؤلَّفات ابن دهَّاق إلينا. يقول أبو الوفا الغُنيمي التفتازاني، على سبيل المثال: "ومن أبرز تلاميذ الشُّوذيّ من صوفية الأندلس، أبو إسحاق بن دهَّاق بن المرأة، المتوفَّى سنة 611هـ (...) ويدلُّنا على مكانة ابن دهَّاق العلمية ما خلَّفه من مُصنَّفات، فقد كتب شرحًا لكتاب الإرشاد لأبي المعالي الجُويني، وكتب شرحًا للأسماء الحسنى، وجزءًا في إجماع الفقهاء. وكتب ابن دهَّاق في التصوُّف شرحًا لكتاب محاسن المجالس لابن العرِّيف، ولم نقف على شيءٍ من مؤلَّفات ابن دهَّاق بعد".[3]

وكذلك يقطع آخرون بكون كتب ابن دهَّاق في عداد المفقود، إذ يقول مُحَمَّد العدلوني الإدريسي: "بعد موت الشُّوذيِّ حمل لواء الطَّريقة، التي تمزجُ الفلسفة بالتصوُّف، تلميذه ابن دهاق (...) وقد جعل ابن المرأة علم الكلام أرضية انتقل منها إلى التصوُّف (...)

([1]) أحمد زرُّوق (أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمَّد بن عيسى الفاسي البُرْنُسي المتوفّى سنة 899هـ)، **قواعد التصوف**، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، الطبعة الثانية (بيروت: دار الكتب العلمية، 1426هـ- 2005م)، قاعدة رقم 87، ص 65-66.

([2]) **الإحاطة في أخبار غرناطة**، المجلد الأول، ص325-326. انظر أيضا: **الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب**، 273/1. و**الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام**، 153/1.

([3]) **المدرسة الشوذية في التصوف الأندلسي**، ص 174-175.

وعن آراء ابن دهَّاق ؛ [فإننا] لا نملك أي أثر لما كتبه ، وإنَّ ما لدينا من معلومات [إنما] استقيناها من هجوم ابن خلدون على مذهبه في الوجود".[1]

(5) **نكت الإرشاد في الاعتقاد**: ومن المرجَّح أنه مرادف للكتاب الأول.[2]

وألَّف غير ذلك من الكتب التي لم تصلنا.

خامسا: مذهب الوحدة المطلقة عند ابن المرأة وابن سبعين

عندما تحدَّث ابن الخطيب عن الصُّوفية ضمن الفن السَّادس من كتابه **روضة التعريف** وصفهم بأنهم "سادة المسلمين" ، ثمَّ ما لبث أن قسَّم السَّالكين طرائق التصوُّف إلى: مريدين ، وعُبَّاد ، وسالكين ، وذاكرين ، وصوفية ، وفقراء ، ومُحقِّقين.[3] وجعل لكلِّ سالك منهم في كلِّ مرحلة بداية ونهاية:

- فالمُريدون بدايتهم عزمٌ ونهايتهم صدق.
- والعبَّاد بدايتهم أورادٌ ونهايتهم أنفاس.
- والسَّالكون بدايتهم التحقُّق بمقام الإسلام العملي ، ونهايتهم التحقُّق بمقام الإحسان العملي.
- والذاكرون بدايتهم أجورٌ ونهايتهم حضور.
- والصُّوفية بدايتهم تخلُّق ونهايتهم تحقُّق.
- والفقراء بدايتهم تجريدٌ ونهايتهم تفريدٌ.
- والمُحقِّقون لا يحجبهم مقامٌ عن مقام ، ولا منزل عن منزل عند التنقُّل في المنازل ، فالمُحقِّق هو الذي يعمرُ المنازل كلّها جملة وتفصيلا.[4]

([1]) انظر: محمد العدلوني الإدريسي ، **التصوف الأندلسي: أسسه النظرية وأهم مدارسه** ، الطبعة الأولى ، (الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع ، 2005م) ، ص211.

([2]) يوسف احنانة ، **تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي** ، الطبعة الأولى (الرباط: وزارة الأوقاف المغربية ، 1424هـ - 2003م) ، ص 137.

([3]) **روضة التعريف بالحب الشريف** ، الجزء الثاني ، ص 620 و 627.

([4]) **المصدر السابق** ، ص 627- 629.

وقد خصَّص ابن الخطيب الفن الخامس "**في رأي أهل الوَحْدة المُطلقة من المتوغِّلين**"، وممَّن اشتُهر به منهم: الشُّوذي المنسوب إليه القوم، وابن دهَّاق، وأبو محمَّد بن سبعين، وأصحابه مثل: أبي الحسن الشُّشتري، وابن مُطرِّف الأعمى، وابن أَحْلى، والحاج المغربي، والجم الغفير من أهل شرقي الأندلس ووادي رقوط.[1]

وبهذا يكون لدينا ثلاث شخصيات كُبرى مؤسِّسة لمذهب **الوحدة المُطلقة**، بحسب نص ابن الخطيب؛ وهم: أبو عبد الله الشوذي المؤسِّس الأول، ثمَّ حلقة الوصل ابن دهَّاق، ثمَّ خاتمة الحلقات عبد الحق بن سبعين. ثمَّ امتدادات تلك المدرسة عند كلٍّ من: الشُّشتري، وابن مُطَرِّف الأعمى، والحاج المغربي ...إلخ. وإن اعتبر ابن الخطيب أنَّ ابن أحْلى من بين هذه الامتدادات، لكننا نعتقد أن دوره لا يقلُّ أهمية عن الدَّور الذي قام به ابن المرأة، فإذا كان الأخير حمل على كاهله عبء نقل تعاليم أستاذه الشُّوذي إلى جيل كامل من الأتباع والمُريدين عبر التَّلقين والتَّدريس والتَّفسير؛ فإنَّ ابن أحلى هو الذي أذاع المذهب بصورة أكبر خارج حدود إمارته الصَّغيرة؛ بفضل خاصَّة خاصته من الأتباع والمريدين الذين تفرَّقوا في البلاد لنشر تعاليم الشُّوذية في ربوع الأندلس قاطبة.

ولعلَّ من أهمِّ ما يميز تجربة ابن المرأة وابن أحلى؛ محاولتهما "إعادة بعض الأفكار الباطنية التي سبق واندثرت. هذه المحاولة تبرز من خلال التَّنظيم الذي اتبعه ابن أَحْلى؛ كاعتماد السِّريَّة وعدم التَّفرقة بين الأتباع المختلفين؛ سواء كانوا من أفراد عائلته أم بعيدين عنها".[2] وفي هذا يقول ابن الخطيب: "ارتكبت هذه الطَّائفة الشُّوذية مُرتكبًا غريبًا من القول بالوحدة المُطلقة، وهاموا به، وموَّهوا ورمزوه، واحتقروا النَّاس من أجله، وتقريره على سبيل الإطالة لا فائدة فيه"!![3]

والحال أنَّ آراء ابن أحْلى الصُّوفية الفلسفية تُشبه إلى حدٍّ كبير آراء أستاذه ابن المرأة؛ حيث يرى أنَّ الموجودات ليست إلا ظلالًا لحقائق أعْلى وأسْمى، وأنَّ وجودها في عالَم الحسِّ إنَّما هو وجودٌ مُقيَّد، حقيقتهُ نسبيةٌ ولا تُعقل إلا في المُدرك. في حين أنَّ الوجود المُطلق؛ أي الوجود الإلهي، هو الوجود الحق. إلا أنَّ ارتباط الإلهي بالمادي كارتباط الجزء بالكل؛ كلاهُما حقيقة إنَّما لا تُعقل مُنفصلة، فالموجودات شواهد، ليس إلا، وفصل هذه الموجودات عن الله ليس إلا من عمل الوهم.

([1]) **نفسه**، ص 604.

([2]) ابن سبعين، **بُدُّ العارف وعقيدة المحقِّق المقرَّب الكاشف وطريق السَّالك المتبتِّل العاكف**، تحقيق وتقديم الدكتور جورج كتورة، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الأندلس ودار الكندي، 1978م)، ص 20-21 من مقدمة المحقّق.

([3]) **روضة التَّعريف بالحبِّ الشَّريف**، الجزء الثاني، ص 604-605.

فإذا تخلَّى الإنسانُ عن وهْمه بلغ درجةً من الكمال ؛ لأنَّ التَّمييز عند ذلك لا يكونُ تمييزًا بل وصْلًا لمراحل ، أو مراتب اعتبارية.[1]

وبحسب أصحاب **الوحدة المطلقة** أيضًا ؛ فإنَّ العبد "مُؤلَّف من طرفي حقٍ وباطل ، فإذا أسقطت الباطل - وهو اللازم بالأوهام - لم يبق إلا الحق (...) فمنه قول ابن أحْلى: حقٌ أقام باطلًا ببعْض صفاتِه. وقال الحاجُّ المغربيُّ: - وقد تعرَّض لما به وقع التعدُّد ، وأنَّه وهمٌ - : فالكلُّ واحدٌ ؛ وإنْ كان مُتفرِّقًا ، فسُبحان من هو في الكلِّ ، ولا شيء سواه ، الواحد في نفسه ، المُتعدِّد بنفسه. لا إله إلا هو. وقال ابن أحْلى من قصيدة:

[الطويل]

فيا عجبًا منِّي ومِنْهُ ، وإنَّه لحقٌ فريدٌ ليس عنه عدولُ

قضاني فأبْداني وغاب بما قضى وألزمني شوقًا إليه يطولُ

وقال :

[الكامل]

وأتوب من شركٍ يُفرِّق واحدًا فاحكُم بما ترْضى عليَّ صبَّار[2]

ويورد ابن الخطيب - بالإضافة إلى أشعار كلٍّ من: ابن أحْلى ، وابن سبعين ، والشُّشتري - أقوالًا توضِّح ما يستبين به مذهب **الوحْدة المطلقة** في الوجود الحق ، والذات الإلهية ، ومحصول السَّعادة ، والألم واللذة ، وطرائق الوصول إلى الحق...إلخ. ومن أبرز تلك الأقوال ، أو التعاليم ، قولهم:

"إنَّ خطاب الله للعالَم ، الجاري على غير هذه القاعدة [أنَّه لا وجود إلا للحق] ، هو تعميةٌ عليهم وتلبيس ؛ ليتم المُلك بذلك ، ولو صرَّح للعالَم بالحقِّ كما هو في نفسه لم يتم المُلك (...) ؛ فالحق إنَّما فهمه من قصر نظره على ضميره ، ولم يعرِّج على الأغيار. ومجموع ما يُتصوَّر في الضَّمير ويُوجد دائمًا لا يتبدَّل ؛ وإنَّما هو قوى أربع :

[1] إحاطة ؛ وهي المُشار إليها بـ "أنا" ، [2] وإدراك ، [3] وإرادة ، [4] وتفصيل ؛ وهو الخبر عن المُدركات والمُتخيِّلات. فهذا ما يجده الإنسان من نفسه ، والثلاث قوى منها راجعةٌ إلى الإحاطة ،

([1]) **بدُّ العارف** ، ص 21.

([2]) **روضة التَّعريف بالحبِّ الشَّريف** ، الجزء الثاني ، ص 605.

وغيرها غير مستقلَّة دونها، وليست الإحاطة في الافتقار إليها كذلك. ومجموع هذه القوى يُسمَّى الكمال. فإذا تقيَّد كان عبدًا، وإذا لم يصحبه التقيُّد كان الحق. والتقييد عبارة عندهم عن التزام الأوهام الواقع بها التعدُّد، وأنَّ التعدُّد باطل، وطرق التعدُّد من قِبَل العقل [ليس إلا!]".[1]

ليس غريبًا إذن، والحالة هذه، أن يشنَّ أبو حيان الأندلسي هجومًا شديدًا على أصحاب **الوحدة المُطلقة** في تفسيره **البحر المحيط**، حيث يقول في معرض تفسير قوله تعالى: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. [المائدة: 17] - بعد أن أتى على أقوال النَّصارى في ألوهية عيسى عليه السلام - ما نصُّه:

"ومن بعض اعتقادات النَّصارى استنبط من تستَّر بالإسلام ظاهرًا، وانتمى إلى الصُّوفية، حلولَ الله تعالى في الصُّور الجميلة، ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة؛ كالحلَّاج والشُّوذي وابن أحلى وابن العربي المقيم بدمشق وابن الفارض، وأتباع هؤلاء كابن سبعين والتستري [الأصح الششتري] تلميذه وابن مطرِّف المُقيم بمُرسية والصفَّار المقتول بغرناطة، وابن اللبَّاج، وأبو الحسن المقيم كان بلورقة، وممَّن رأيناه يُرمى بهذا المذهب الملعون: العفيف التِّلِمْساني، وله في ذلك أشعارٌ كثيرة، وابن عيَّاش المالَقي الأسود الأقطع المقيم كان بدمشق، وعبد الواحد بن المُؤخِّر المقيم كان بصعيد مصر، والأيكي العجمي الذي كان تولَّى المشيخة بخانقاة سعيد السُّعداء بالقاهرة من ديار مصر، وأبو يعقوب بن مبشِّر؛ تلميذ التستري [الششتري] المقيم كان بحارة زويلة. وإنَّما سردت أسماء هؤلاء نُصحًا لدين الله، وشفقة على ضعفاء المسلمين، وليحذروا، فهم شرٌ من الفلاسفة الذين يكذِّبون الله تعالى ورسله، ويقولون بقدم العالَم، وينكرون البعث. وقد أولع جهلةٌ ممَّن ينتمي للتصوف بتعظيم هؤلاء، وادّعائهم أنَّهم صفوة الله وأولياؤه. والردُّ على النَّصارى والحلولية والقائلين بالوحْدة هو من علم أصول الدِّين".[2]

وفي تفسير قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}. [التوبة: 31] يقول أيضًا: "ومذهب الحلول فشا في هذه الأمَّة كثيرًا، وقالوا بالاتحاد، وأكثر ما فشا في مشائخ الصُّوفية والفقراء في وقتنا هذا، وقد رأيتُ منهم جماعة يزعمون أنَّهم أكابر، وحكى أبو عبد الله الرازي أنه كان فاشيًا في زمانه؛ حكاه في تفسيره عن بعض المروزيين كان يقول لأصحابه: أنتم عبيدي (...) وقد صنَّف شيخنا

([1]) **المصدر السابق**، ص 607.

([2]) **تفسير البحر المحيط**، الجزء الثالث، ص 464-465.

المحدِّث المتصوِّف قطب الدِّين أبو بكر محمَّد بن أحمد بن القسطلَّاني كتابًا في هذه الطَّائفة ، فذكر فيهم: الحسين ابن منصور الحلَّاج ، وأبا عبد الله الشوذي ، كان بتلمسان ، وإبراهيم بن يوسف بن دهان [كذا! والأصح دهاق] عرف بابن المرأة ، وأبا عبد الله بن أحلى المتأمِّر بلورقة ، وأبا عبد الله بن العربي الطائي ، وعمر بن علي بن الفارض ، وعبد الحق بن سبعين ، وأبا الحسن الششتري من أصحابه ، وابن مُطرِّف الأعمى من أصحاب ابن أحلى ، والصُّفيفير من أصحابه أيضًا ، والعفيف التلمساني ، وذكر في كتابه من أحوالهم وكلامهم وأشعارهم ما يدلُّ على هذا المذهب. وقتل السُّلطانُ أبو عبد الله بن الأحمر ملك الأندلس الصفيفرَ بغرناطة وأنا بها ، وقد رأيتُ العفيف الكوفي وأنشدني من شعره ، وكان يُتمتم هذا المذهب ، وكان أبو عبد الله الأيكي شيخ خانقاة سعيد السُّعداء مُخالطًا له خلطة كثيرة ، وكان مُتَّهمًا بهذا المذهب وخرج التلمساني من القاهرة هاربًا إلى الشَّام من القتل على الزَّندقة".[1]

إنَّ القيمة الحقيقة لنصي أبي حيان الأندلسي تتجاوز نطاق مُعارضته آراءَ أصحاب **الوحدة المطلقة** واتهامهم بالإلحاد والزَّندقة ، إلى بيان مجموعة من الأمور المهمَّة في نظرنا ، وفي مقدِّمتها:

أولًا: أنَّهما يوضِّحان لنا إلى أي حدٍ أصبح مذهبا **وحدة الوجود والوحدة المطلقة** يمثِّلا تيارًا عريضًا يتوزَّع على مُدن وعواصم العالم الإسلاميِّ كافَّة: مشرقًا في دمشق وبلاد الشَّام حيث يوجد كلٌّ من: ابن العربي وصدر الدين القونوي والعفيف التلمساني ، ووسطًا في القاهرة حيث يقوم على نشر هذا المذهب شيخ خانقاة سعيد السُّعداء أبو عبد الله الأيكي ، ويتغنَّى به سُلطان العاشقين ابن الفارض ، ومَغْربًا في بلاد الأندلس حيث عاش ابن المرأة وابن أَحْلى وتلاميذهما: كابن مُطَرِّف الأعمى ، وابن الصُّفيفير ، والحاج يس المغربي ، وغيرهم.

ثانيًا: أنَّهما يكشفان لنا عن تيار آخر مُعارض بزعامة كلٍّ من: ابن تيمية ، والبقاعي ، وقطب الدِّين القسطلَّاني (ت 686هـ) ، حيث ألَّف البقاعي كتابات تنصُّ صراحة في عناوينها على تكفير ابن العربي وابن الفارض بصفة خاصة ، كما ألَّف القسطلَّاني كتابه "الارتباط" ، وربما هو ذلك الذي أشار إليه ابن تيمية بالقول: "وحدَّثني صاحبنا الفقيه عليُ بن قرباص أنّه دخل على الشَّيخ قطب الدِّين القسطلَّاني فوجده يصنِّف كتابًا ، فقال: ما هذا؟ فقال: في الرَّد على ابن سبعين ، وابن الفارض ، وأبي الحسن الجربي ، والعفيف التلمساني".[2] لكنَّ ابن العربي حاز الحظَّ الأوفر من هجوم أتباع هذا التَّيار ، ومن بين المؤلَّفات التي وُضعت خصيصًا من أجل ذَمِّه وتكفيره ؛ بالإضافة إلى تكفير كلٍّ من ابن سبعين ،

(1) **المصدر السابق** ، الجزء الخامس ، ص 33.

(2) ابن تيمية ، **مجموعة الرسائل والمسائل** ، (القاهرة: مطبعة المنار ، 1349هـ) ، الجزء الرابع ، ص 75.

وابن الفارض. وبموازاة هذا التَّيار المُعارض كان ثمة وجود قوي أيضًا لتيار آخر أخذ على عاتقه مهمَّة الذبّ عن شيوخ التصوف، ودفع تهمة الإلحاد والكفر والزَّندقة عنهم؛ وتلك قضية أخرى عسى أن نُخصِّص لها دراسة مُستقلة في وقت لاحق.